زمردة الأقدار

حكاية الحب والرحيل

موفَّق بن محمد السنوسي

زمردة الأقدار

في زوايا الحياة المظلمة، وأمام أعاصير الفقد والمصير، تتكشف لنا حكايات لم نكن نتوقعها.

في رحلة تتأرجح بين الحب والخيانة، الرحيل والعودة، تتشابك الأقدار لترسم لنا مسارًا مليئًا بالأسئلة التي تظل بلا إجابات.

لا شيء يبقى على حاله، وكل خطوة قد تقودنا إلى مصير لم يكن في الحسبان.

لكن وسط هذا الضباب، تظل الذكريات والأشخاص الذين نحبهم كزمردة تنير لنا الطريق حتى وإن غادروا حياتنا.

@mmsanousi

مصطفى علوان
تصميم الغلاف
Mostafa_Olwany

حقوق الطبع والنشر

هذا العمل "زمردة الأقدار" هو ملكية فكرية لمؤلفه، موفق بن محمد السنوسي. جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو نسخه أو توزيعه أو تعديله بأي وسيلة كانت، سواء كانت إلكترونية أو مطبوعة، دون إذن خطي من المؤلف.

الرقم الدولي المعياري للكتاب: (ISBN): 978-603-05-4202-4

هذا الكتاب مخصص للاستخدام الشخصي فقط، ويُمنع منعا باتا استغلاله لأي أغراض تجارية أو بيعه أو إعادة نشره أو توزيعه لتحقيق أي مكاسب مادية.

ما قبل النهاية ...

بينما كنت جالسًا في غرفتي، دخلت ورد فجأة بحماس ملحوظ وقالت: "راكان، أريدك أن توقظني غداً، لدي محاضرة مبكرة."

نظرتُ إليها بصمت، كنت حينها قد تلقيت لتوّي خبر وفاة حسن عبر الهاتف. شعرتُ بثقل الخبر يجثم على صدري ويعقد لساني.لا بد أنها لاحظت أنني لست على ما يرام، فسألتني بقلق: "ما بك؟ هل حدث شيء؟"

حاولت أن أتمالك نفسي وقلت بهدوء: "ورد، أحتاج مساعدتك في تنظيف شقة حسن."

كنا نعيش في مبنى مكون من ثلاثة طوابق. كان الطابق الأول مخصصًا في الغالب لاستقبال الضيوف. والطابق الثاني الذي نقضي فيه معظم أوقاتنا، حيث توجد فيه غرفة المعيشة وغرف نومنا. أما الطابق الثالث فكان مستقلاً تمامًا، وقد خصصه والدنا ليكون لكل واحد منا، أنا وحسن وورد، شقة خاصة عندما نتزوج. كانت شقة حسن هناك، حيث عاش مع طليقته، وقد أصبح الطابق موحشًا بعد مغادرته وإغلاق شقته.

ردت باستغراب: "شقة حسن؟ أنت تحتاج إلى مساعدة شركة تنظيف! الشقة مهجورة ولم تُفتح منذ سنين! ماذا تريد منها؟"

تنهدت وأجبتها: "حسن سيعود مع زوجته وطفليه."

تفاجأت وردّت قائلة: "حسن؟! منذ متى تزوج وأصبح لديه أطفال؟! أتريد أن تغضب والدنا؟! ألم يخبرنا أنه لا يجب علينا التواصل أو الحديث معه؟ لا، لن أفعل شيئًا. إذا أردتَ، فافعل ذلك أنت."

ساد الصمت لعدة لحظات، كنت أحاول فيها جمع شتات نفسي. نظرت إلى ورد بعينين يملأهما الحزن وأخبرتها بنبرة مختنقة:

"ورد، حسن توفي."

انتفضت ورد من هول الخبر وصرخت: "أنت تكذب! لا أصدقك."

طلبت منها أن تخفض صوتها، وأخبرتها أنه قد توفي قبل عدة ساعات ولقد أخبرتني زوجته بذلك قبل قليل. سيصلون بعد أسبوع مع جثمانه.

كانت الأيام تمضي وأنا وورد في حالة يرثى لها. حالة غريبة يسودها الصمت وشعور قاتم لا يمكن وصفه. كلاّنا لا يصدق ما حدث ولا يستطيع تصور ماذا سيحدث. تساؤلات لا نهاية لها دون أي إجابات.

كانت ورد في نهاية كل يوم تأتي إلى غرفتي محملة بالكثير من الأسئلة وتخرج منها بالمزيد. فأنا حقًا لا أعرف الكثير عما حدث. فتواصلي مع حسن ما كان إلا منذ عدة أسابيع قليلة وكانت أحاديثنا مقتضبة ولم يوضح لي الكثير، بل أشعر أنه لم يوضح لي شيئًا سوى أن القادم سيكون أجمل. ولكن لا أرى أي جمال فيما حدث. إنه فصل جديد كئيب من فصول حياتنا التي لم تعد على ما يرام منذ مغادرته لنا قبل أعوام.

كانت الرحلة ستصل قريبًا، وذهبت إلى غرفتي في محاولة لأخذ قسط من الراحة قبل استقبال جثمان حسن مع أماندا والأطفال. حاولت النوم، لكن الأفكار الثقيلة منعتني من الراحة. بعد محاولات عديدة، يبدو أنني غفوت لفترة قصيرة. عندما استيقظت، ارتديت ملابسي وتوجهت إلى غرفة ورد، حيث أخبرتها أنني سأذهب إلى المطار.

حاولت إقناعها بضرورة إخبار والدينا بما حدث. قلت لها: "إلى متى سنستمر في إخفاء الأمر؟ يجب أن يكونوا مستعدين لما سيأتي."

أجابت بتردد: "راكان، سأحاول، لكن لا أستطيع أن أعدك. ما زلت غير قادرة على استيعاب كل ما حدث. هذا الأمر أكبر مني. حتى أنني لم أتمكن من حضور المحاضرات خلال هذه الفترة. أرجوك تفهمني. هل

تعلم أن آخر ذكرى لي مع حسن كانت عندما كنتُ طالبة في المدرسة؟ منذ ذلك الوقت، لم أفهم ما جرى ولماذا حدث كل هذا."

كنت حاضرًا بجسدي في صالة انتظار المطار الدولية، لكن عقلي كان غارقًا في تساؤلات لا تنتهي. التساؤلات التي لم تفارقني منذ تلقي الخبر. فتواصلي مع حسن كان مقتضبًا في أيامه الأخيرة، وكانت آخر مرة رأيته فيها قبل أكثر من سبع سنوات. لم أستطع حتى الآن استيعاب الأمر. كيف يمكنني تقبل فكرة أنني لن أتحدث معه مرة أخرى؟

لطالما كان لدي شعور بأنه سيعود يومًا ما، وأن والديَّ سيسامحانه ويغفران له ما فعل. رغم كل شيء، وبرغم إتمام إجراءات نقل جثمانه من أمريكا، ما زال جزء مني يرفض تصديق رحيله للأبد. ربما لهذا السبب لم أحرص على إخبار أحد بالأمر سوى ورد، وكأنني أخشى مواجهة الحقيقة، أو ربما كنت أتمسك ببصيص أمل، ولو كان خياليًا، بأنني سأراه مرة أخرى.

انقطع حديثي لنفسي عندما شعرت بطفل يمسك يدي ويحاول مناداتي.

"عمي، عمي"

نظرت إليه، وإذا به طفل يبدو أنه لم يتجاوز الثالثة بشعر أسود كثيف وبشرة بيضاء وعينين واسعتين ذكّرتني فورًا بعيني حسن. كانت خلفه امرأة شقراء ترتدي عباءة سوداء وتغطي جزءًا من شعرها وهي تحمل في يدها طفلة وتدفع عربة الحقائب باليد الأخرى.

قالت لي أماندا بابتسامة بدا واضحًا أنها بذلت مجهودًا كبيرًا في صنعها لإظهار الود: "هاي، ركن. عرفتك من الصور. أعتذر إن كنت أنطق اسمك بطريقة خاطئة، فأنا لا أتحدث العربية. فقط بدأت مؤخرًا بتعلم نطق الحروف وبعض الكلمات."

فأجبتها: "أهلاً، أماندا. لا بأس، نطقك صحيح وأنا أتحدث الإنجليزية بشكل جيد، فلا تقلقي. دعيني أدفع عنك العربة."

أماندا: "أسفه على خسارة هسن. كنا نتمنى أن يحدث هذا اللقاء بتواجده. في الواقع، هذا هو ما كان هسن يريده، ولكنك تعرف أن الأمور سرت على غير ما نتمنى."

رددت عليها: "فعلاً، أنا حتى الآن لم أستطيع تصديق الأمر. دعيني أدفع عنك العربة ولنذهب لاستلام الجثمان."

ثم ناديتها: "أماندا، هل يتحدث محمد العربية؟"

أماندا: "نعم، ولكن كما أخبرني حسن، فهو يتحدث اللغة العربية الفسحى."

صححتها بلطف: "تعنين الفصحى؟ نعم، نعم."

نظرت إلى محمد وسألته باللغة العربية: "كيف حالك؟"

أجابني: "الحمد لله، أنا بخير."

فسألته: "هل تعرف من أنا؟"

أجابني بثقة: "نعم، أنت عمي. عرفتك من الصور ولقد أخبرني أبي الكثير عنك وأننا سنكون أصدقاء."

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أحمله وأقبله وأقول له: "نعم، بالتأكيد. هل تريد شراء بعض الحلوى من هذا المكان؟"

نظر إلى والدته، فأومأت له بالموافقة، فقال: "نعم، أريد."

فقلت مبتسمًا: "لنذهب إذًا ونأخذ معنا أختك الصغيرة."

كنت أشعر بالأسى تجاهه وأنا أمسك بيده، وأحمل سارة باليد الأخرى. كنت أتذكر نفسي وأنا أمسك بيد حسن عندما كنا نذهب لشراء شيء

ما من البقالة المجاورة لمنزلنا القديم. وأعلم أن أبناءه لن يعيشوا هذه اللحظات معه بعد رحيله. شعرت أن ذكرياتي مع حسن بدأت تتدفق كنهر جارٍ بلا توقف.

عندما ظهرت العربة التي تحمل الجثمان، شعرت بقشعريرة تمر عبر جسدي. كانت المرة الأولى التي يكون فيها أخي بجواري بعد كل تلك السنين، ولكن لم يكن الأمر كما تصورت، ولا حتى في أسوأ كوابيسي. لا حركة ولا صوت ولا شيء. حاولت مسح دموعي التي بدأت في التدفق خشية على مشاعر الطفلين. وبرغم مشاعر الحزن التي كانت تعتصر قلبي، شعرت للحظة بحالة من السلام. فهو الآن في مكان أفضل بعيدًا عن الألم والمعاناة التي لازمته لسنوات.

استلمنا جثمانه الذي وُضع في سيارة مختلفة وطلبت من السائق أن يتبعنا.

بمجرد تحركنا، غلب النعاس محمد وسارة بعد الرحلة الطويلة. ووجدت أنها فرصة للحديث مع أماندا.

راكان: "أماندا، أريد أن أخبرك بأمر ما. في الواقع، لم أستطع إخبار والديَّ بقدومكم بسبب صعوبة الأمر وتعقيده."

أماندا: "لا تقلق، أنا متفهمة. هسن، أخبرني بكل شيء، وإذا أردت، نستطيع الذهاب إلى فندق والمكوث فيه لعدة أيام."

راكان: "لا، منزلكم جاهز وقد ساعدتني ورد في توضيبه. فقد طلب مني حسن ذلك قبل وفاته وأصر على أن يكون جاهزًا لاستقبالكم ومكوثكم فيه. إنها شقة مستقلة في المبنى الذي نعيش فيه. الأمر فقط أني لا أعرف كيف سيستقبل والديَّ كل ما حدث. ولكن وعدتني ورد أنها ستخبرهم بالأمر."

أماندا: "ركن، أنا مستعدة لأي شيء. لقد كانت وصية هسن أن أعود وأن يكبر أبناؤه بجوار أهله."

وأكملت حديثها قائلة: "أعلم أنك خسرت أخًا، ولكنني خسرت كل شيء. حسن كان يمثل لي كل شيء في حياتي وأنا مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن ترقد روحه في سلام."

راكان: "أماندا، حسن لم يكن مجرد أخ كبير فقط. لقد كان صديقي وأبي. مازلت لا أستطيع تقبل فكرة رحيله عن حياتنا. طالما كنت أعتقد أنه سيعود يومًا ما ويملأ الفراغ الذي تركه في حياتنا."

أماندا: "فعلاً، كان ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر. لقد تحدثنا كثيرًا عن لحظة عودته لكم والعيش معكم مرة أخرى. بل كان متأكدًا أنه سيصلح كل شيء وستعود الأمور أفضل مما كانت عليه."

راكان: "كيف كانت أيامه الأخيرة؟"

تنهدت أماندا قائلةً: "آه، اعذرني، فأنا منهكة ومتعبة. كل شيء حدث بسرعة كبيرة، وأحاول أن أكون متماسكة من أجل محمد وسارا، ولكن أشعر أنني لا أستطيع. رحل حبيبي ورحلت معه روحي."

راكان: "لا عليك، نحن أهلك ومعك وقد أخبرني حسن ماذا تعنين له."

اتصلت ورد تسألني عن موعد وصولنا إلى المنزل، وبلغتني أنها لم تخبرهم بعد، ولكن ستفعل. فأخبرتها أننا اقتربنا وقلت لها أن تطلب من أمي وأبي الحضور إلى المجلس.

وصلنا إلى المنزل واقترحت على أماندا البقاء في السيارة قليلاً حتى أستطيع الدخول وإخبار والديَّ. فأجابت بالموافقة.

توقفت قليلاً ونظرت إلى السيارة التي تحمل جثمانه وحاولت تمالك نفسي وطلبت من الله أن يعينني ويقويني. من ثم قمت بالدخول إلى المنزل.

قابلتني ورد وأخبرتني أنها لم تستطع قول شيء بالرغم من شعور والديَّ وإلحاحهم أن هناك أمرًا ما. احتضنتها وأخبرتها ألا تقلق، سيكون الأمر على ما يرام.

نظرت إلى وسألتي: "هل رأيت وجهه؟"

فأجبتها: "لا، لم أستطع."

بمجرد أن رأتني والدتي، قامت بسؤالي: "يا بني، ماذا يحدث؟ هل حدث لأخيك شيئًا؟ أرجوك أن تريح قلبي."

نظرت إليها وإلى والدي الذي اكتفى بالنظر إليّ، وقلت لهما: حسن توفي، رحمه الله. وجثمانه في الخارج مع زوجته وطفليه.

فانفجرت والدتي بالبكاء وصاح والدي بشكل متكرر: "لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون."

أكملت حديثي وقلت لهم: "الآن سنقوم بإدخال جثمانه وسنصلي عليه الفجر بإذن الله. كما أن زوجته وطفليه سيمكثان في شقة حسن كما أوصاني."

ذهبت ورد إلى والدتي وحاولت تهدئتها وتذكيرها بالله عز وجل، وأنه ذهب إلى الكريم وارتاح من عناء الدنيا وهمومها. أدخلتها إلى غرفة مجاورة حتى يتسنى لنا إدخال جثمان حسن. وخرج والدي معي وهو ما زال يحوقل ويترحم على حسن.

ذهبت إلى سيارتي وطلبت من أماندا أن تأتي معي حتى ترتاح قليلاً في منزلها، وحملت محمد الذي كان يغط في نوم عميق، ووجهت حارس العمارة لحمل الحقائب إلى شقة حسن.

حاولت أماندا السلام على والدي أثناء دخولها المبنى، ولكنه أشاح بوجهه وتجاهلها.

أوصلت أماندا إلى الشقة وأخبرتها أن ورد ستصعد إليها بعد قليل، وطلبت منها عدم التردد في التواصل معي في حالة احتياجها لأي أمر.

بينما كنت أتأكد من إدخال الحقائب ووضع محمد على السرير، كان والدي يساعد الآخرين في إدخال جثمان حسن إلى المجلس.

دخلت المجلس وإذ بجثمان حسن ممدد في وسطه، والجميع حوله. والدي ووالدتي وورد. الجميع يبكي بحرقة، حتى والدي الذي لم أشاهده يذرف دمعة في حياتي كان يبكي. لأول مرة شعرت أنه كان يملك مشاعر؛ فقد كان قاسيًا جدًا علينا ولا سيما على حسن.

ذكرني ذلك المشهد بآخر مرة جمعتنا بحسن قبل سفره. كنا نجلس في نفس المكان، وعلى النقيض مما يحدث الآن، نحن الصامتون بينما هو المتحدث، دون أن يرد أحد منا عليه أو ينظر إليه. كان يلتمس منا فهم وضعه وقبول قراره، لكن دون جدوى. أتذكر تلك الكسرة التي بدت على وجهه عندما نظر إليه والدي بعد فترة صمت وأخبره بأنه ليس ابنه، وأنه لم ينجب إلا راكان وورد، وأن غضبه وغضب والدته سيبقى عليه إلى الأبد. حتى أنه نظر إلى والدتي وأخبرها بأنها تصبح محرمة عليه إذا تحدثت معه بعد مغادرته للمنزل.

هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟ ما كل هذه القسوة؟

جلست أمي عند رأسه وأخذت تمسح وجهه وتقول: "أشهدك يا رب أني راضية على ابني حسن، وأنه كان بارًا فيّ وفي والده، وأني أسامحه."

كانت ترتسم على وجهه ابتسامة جعلتني أشعر وكأنه كان سعيدًا بعودته إلى بيته وأهله. قبلت رأسه وأخذت أدعو له بالمغفرة والرحمة. ثم طلبت من ورد أن تصعد إلى أماندا وتتأكد أنها بخير ولا تحتاج شيء.

قالت والدتي غاضبة: "هذا ليس الوقت المناسب للمدعوة أماندا. دع اختك تودع أخاك وتدعو له!"

فأجبتها بهدوء: "يا نور عيني، هذه زوجة ابنك وأم أحفادك. وكان حسن في آخر مكالمة قبل وفاته يوصيني بها وبأبنائه."

قالت لي بنبرة تعجب: "وهل كنت تتحدث معه؟"

فأجبتها: "لم أتحدث معه إلا مرات قليلة في الأسابيع الماضية. وسأخبرك بكل شيء لاحقًا، ولكن الآن دعي ورد تصعد إليها بينما أبلّغ الأقارب والأصدقاء حتى يتسنى لهم حضور الصلاة والدفن. فلم يتبق على صلاة الفجر سوى ساعتين."

عادت ورد بعد قليل تخبرني أن أماندا ترغب بالحديث معي.

صعدت إليها ووجدتها تنتظرني أمام باب شقة حسن أو شقتها، فقد رحل حسن. كانت بنفس الهيئة التي استقبلتها في المطار، مرتديةً الوشاح والعباءة ذاتها، وفي يدها ذاكرة تخزينية.

أماندا: "ركن، هسن أخبرني أن أعطيك هذه الذاكرة المتنقلة في حالة حدوث أي شيء له، وطلب مني أن تقرأ ما فيها لوالدتكم. كما أني أيضًا أرغب في السماح لي بالنزول ورؤية حسن للمرة الأخيرة قبل دفنه."

أخبرتها أنه بالتأكيد يمكننا فعل ذلك.

دخلت أماندا المجلس وكانت والدتي ما زالت جالسة بالقرب من رأسه تقرأ القرآن.

أماندا: "السلام اليكم. آسفة على خسارتكم."

والدتي: "ماذا تقول؟!"

فأجبتها أنها تعزينا في وفاة حسن.

أماندا: "أخبر والدتك أني لم أرَ شخصًا يحب والدته كما كان يحبها، وأنه كان يطلب من الله أن يمد في عمره حتى يستطيع رؤيتها وتقبيلها يديها مرة أخرى."

لم تجب والدتي عليها سوى بإيماءة خفيفة برأسها لا تدل على شيء واضح.

لعل أكثر ما أثار استغرابي هو انهيار أماندا بالبكاء عند الاقتراب من جثمانه. بل إنها أخذت تمسح على جسده وتقبل يده وهي تردد: "يا حبيبي، قلبي، كيف لي الآن العيش بدونك؟ لماذا ذهبت مبكرًا؟ لماذا تركتني؟"

لطالما قيل لي أن الغربيين يتصفون ببرود المشاعر والأحاسيس، لكن ما رأيته كان مختلفًا تمامًا. كل ما رأيته منها حتى الآن يعكس لي مدى الحب الذي تكنه لحسن.
حتى والدتي شعرت بذلك، لأنها سرعان ما توقفت عن قراءة القرآن واقتربت منها واحتضنتها في محاولة لمواساتها ومواساة نفسها على خسارتهما.

المثوى الأخير

ركبتُ أنا وأبي السيارة وانطلقنا إلى المسجد الذي سيُصلى فيه على حسن. كان والدي يبدو في حالة يُرثى لها، فقد كان كالذي يرتدي شماغه وعقاله لأول مرة، وهو الذي اعتاد على الاعتناء بهندامه جيدًا قبل خروجه من المنزل، لأنه كان يعمل في منصب حكومي رفيع قبل التقاعد. أردت كسر الصمت الذي ساد، لكنني لم أعرف ماذا أقول له. فكرت كثيرًا في الشيء الذي أستطيع قوله ولكن اعتراني الخوف، لاسيما أني لم أستطع أن أجزم أن ما سأخبره به سيحسن من حالته أم يزيد في سوئها.

كُسر الصمت وفاجأني والدي قائلاً: "راكان، هل كنت تتواصل مع حسن خلال الفترة الماضية؟"

أجبته بصوت مرتجف قليلاً ونبرة مترددة: "لا والله يا والدي، لم أتواصل معه سوى في الأسابيع الأخيرة."

والدي: "لا بأس، وماذا كان يقول لك؟"

هذه فرصة ذهبية بما أنه لم يُبدِ أي غضب على تواصلي معه دون علمه.

قلت له: "كان يخبرني أنه سعيد جدًا بعودته قريبًا بعد الانتهاء من العملية وأنه سيخبرنا بالحقيقة وسبب كل ما حدث. وأنه كان متيقنًا أن الأمور ستعود أفضل مما كانت. ومحمد الصغير هو تذكرة دخوله إلى قلوبكم مرة أخرى."

والدي: "كم عمر ابنه وابنته؟"

راكان: "محمد ثلاث سنوات تقريبًا وسارة أقل من سنتين."

والدي: "رحمه الله وغفر له. يعلم الله أني بالرغم من غضبي منه إلا أنه كان نعمَ الابن وأني راضٍ عنه وأسامحه على ما فعل."

راكان: "هذا المهم يا والدي. حسن الآن عند كريم رحيم وكل ما يحتاجه منا الدعاء له بالرحمة والمغفرة."

وصلنا المسجد ووجدنا أقاربنا وأغلب من أبلغناهم بوفاة حسن في انتظارنا.

صلينا الفجر وذهبنا بعد الصلاة أنا وبعض أقاربي لإحضار جثمان حسن من سيارة الموتى بينما بقي والدي جالسًا على كرسي ينتظرنا.

أثناء ذهابنا سألني بعض الأقارب عن سبب الوفاة وكيف حصلت. تحاملت على نفسي وأخبرتهم بالرغم من أني لم أرغب في التحدث إليهم لا سيما أن من بينهم ابن عمي، أخ طليقة أخي حسن. فهم لم يتوقفوا عن الحديث عليه وذكره بالسوء طوال الأعوام الماضية. لطالما كانوا يهمزون ويلمزون كلما اجتمعنا في مناسبة ما.

حملنا جثمانه واتجهنا به إلى المسجد للصلاة عليه. لم يخطر ببالي يومًا أنني سأحمل جثمان حسن، صديق الطفولة والأب في الكبر، رفيقي وسريري الذي كنت أخبره بكل ما يحدث في حياتي، وقد أصبح الآن غير موجود. من سأخبر عن المشاعر التي تعتريني الآن؟ من سيواسيني ويخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام؟

وضعنا جثمانه واصطففنا للصلاة عليه. لاحظت أن والدي ظل جالسًا ولم يستطع الوقوف. وبمجرد أن قال الإمام: " الصلاة على الميت أثابكم الله" وأخذ بالتكبير، انفجر والدي بالبكاء كطفل صغير وأخذ يمسح دموعه بالشماغ الذي كان يرتديه. في تلك اللحظة، لم أعد

أستطيع تمالك نفسي وأخذت أبكي معه. لم يكن يسمع الناس سوى بكائنا وتكبيرات الإمام.

اتجهنا جميعًا بعد الصلاة إلى المقبرة. وعند قبره، أصر والدي على النزول معي ومع أحد أقاربنا إلى القبر. حاولت إقناعه بأنه لا داعي لفعل ذلك لأنني كنت خائفًا عليه من السقوط، خصوصا أن السلالم المؤدية إلى القبر متحركة ويتطلب النزول والصعود منها مجهودًا وحذرًا كبيرين، إلا أنه كان مصرًا. وضعنا جثمانه في القبر وكشفنا عن وجهه. صعد قريبي وبقيت مع والدي في القبر. اقتربت منه وقبلت رأسه للمرة الأخيرة، وكذلك اقترب والدي ووضع رأسه عند أذنه وأخذ يدعو له وهو يمسح على وجهه. ساعدت والدي على الصعود وبقيت لعدة لحظات أنظر إليه. أردت توديعه للمرة الأخيرة التي سأراه فيها في هذه الحياة. ناداني والدي وأخبرني بأن عليّ الصعود.

وقفنا بعدها لتلقي العزاء من المشيعين. كان والدي في أول الصف جالسًا على الكرسي وحرصت على أن أكون بجواره رغم وجود أعمام لي يكبرونني سنًا وجرت العادة أن يتقدموا صف العزاء ولكني وددت أن أكون بجواره. بعد أن أدى الحضور واجب العزاء، جاء عمي والد طليقة أخي وسألنا عما إذا كنا نحتاج إلى أي مساعدة في ترتيبات العزاء، وبعد ذلك قال: "الله يرحمه ويغفر له ويسامحه على ما فعل!"

هنا اشتعلت غضبًا وأجبته بنبرة حادة: "وماذا فعل؟! ها؟ ماذا تقصد؟ سيسامحه بالتأكيد، فهو لم يفعل إلا كل خير".

أمسك والدي بيدي وأومأ إليّ برأسه أن أهدأ ولا أفعل شيئًا.

أجاب عمي: "لا أقصد شيئًا. الله يرحمه ويغفر له."

أثناء عودتنا للمنزل سألني والدي: "هل أخبرك حسن قبل وفاته بالحقيقة التي كان يتحدث عنها وأنها ستجعلنا نتفهم ما فعله؟"

راكان: "لا، ولكن قبل أن نغادر قامت أماندا بإعطائي ذاكرة متنقلة وقالت لي إن حسن طلب مني قراءتها لوالدتي لأنه كتب فيها كل شيء."

والدي: "عندما نعود أريد منك أن تقوم بذلك أمامنا جميعًا وليس فقط أمام والدتك. لأن ما قاله عمك اليوم لم يزعجك وحدك فقط ولكني لم أعرف ما الذي يمكنني قوله. فأخوك، رحمه الله، هو من جعلنا في هذا الموقف."

راكان: "حسنًا، وأنا متأكد أننا نجهل الكثير من الأمور لأنه ليس من المنطق أن شخصًا مثل حسن يكون كما صُور لنا."

وصلنا إلى المنزل، وطلبت من أمي وأختي الحضور، فجلسنا جميعًا. أحضرت جهازي الشخصي، وقبل أن أبدأ بقراءة الملفات، نظرت إليهم متسائلًا: "هل هذا هو الوقت المناسب لفعل ذلك؟"

تحدث والدي قبل أن يتحدث أحد وقال: "نعم، يكفي كل هذه الأعوام من المعاناة، أريد أن أسمع ما قد يريح قلبي وقلب والدتك."

الرسالة الأولى: بداية النهاية – الجزء الأول

أم حسن، حبيبة الفؤاد ومهجة القلب، أتمنى لو كنت برفقتك الآن، ولكن على ما يبدو أن المولى عز وجل لم يقدر لي ذلك. أنا الآن عند الرحمن الرحيم الذي علم أن رحلتي ومعاناتي قد انتهت وبدأت راحتي. لقد بدأت بكتابة هذه الرسائل لك بعدما علمت بحالتي الصحية، خوفًا من أن لا تعلمي ماذا حدث لي، وطمعًا في أن تغفري لي أنت ووالدي وتسامحاني على ما فعلته. قررت كتابة كل شيء فأنا مستعد الآن لذلك.

لقد كانت الكتابة هي الوسيلة الوحيدة للنجاة والبقاء خلال كل هذه الأعوام، وكان القلم الصديق الوفي الذي أجده دائمًا عند الحاجة. كانت الكتابة هي المتنفس الوحيد بالنسبة لي، حتى ظهرت أماندا في حياتي. لهذا قررت أن أجمع كل ما كتبته وأكتب ما لم أدونه في مجموعة من الرسائل أحكي فيها رحلتي في هذه السنوات التي حُرمت فيها منك. لكنك كنتِ دائمًا الحاضر الغائب، والله على ما أقول شهيد.

عليك أن تعلمي وتتأكدي يا والدتي أني كنت وما زلت ابنك الذي ربيتيه على الفضيلة والقيم النبيلة، وأن كل ما كان يقال عني والصورة التي رُسمت لديكم غير صحيحة البتة. وأني كنت ضحية لا جاني، وأن رحيلي

كان هو الطريق الوحيد لنجاتي. فأنا كنت أحتضر بسبب ما فعلته سوسن. تلك اللعينة أفسدت كل شيء في حياتي وجعلتني كتلة متحركة من الغضب والعجز في ذات الوقت. كما أني شعرت أن لا أحد منكم كان حقًا يستطيع مساعدتي بالطريقة التي كنت أحتاجها فعلًا. كنت أتمنى في كل ليلة أن يأخذني الله، لأني كنت أرى أن الموت هو السبيل الوحيد للخلاص من هذا العذاب.

أعلم أنك تتساءلين الآن لماذا لم أخبر أحدًا منكم بما كان يحدث معي. في الحقيقة، كنت أحاول بطرق مختلفة، لكنني لم أشعر بوجود أي جدوى حقيقية في خلق حديث أو تواصل فعال معكم. كما أنني لم أكن معتادًا ولا متقبلًا لفكرة إظهار ضعفي وانكساري، وهذا جعلني حادًا في تصرفاتي وكلامي. صدقًا، لم أكن في حالة طبيعية، وليس بسبب ما أوهمتكم به سوسن ووالدها، بل نتيجة لما حدث بالفعل.

والدتي الغالية، إنني الآن أكتب لك هذه الرسالة من أعماق قلبي، وأريدك أن تعرفي أنني أحبك بكل ما أوتيت من قوة. كنتِ دائمًا نبض حياتي وأمل أيامي، ولكن الظروف القاسية والأحداث التي مررت بها كانت أقوى مني. لم أكن أريد أن أسبب لك هذا الألم.

أتذكر كل لحظة قضيتها معك، وكل نصيحة قدمتها لي، وكل لحظة من العطف والحنان التي منحتني إياها. تلك الذكريات هي ما أبقاني مستمراً خلال الأوقات الصعبة. كنت أتمنى أن أكون بجانبك الآن، لأحتضنك وأقول لك كم أحبك وكم أنتِ مهمة في حياتي.

بدأت القصة في أحد الأيام عندما استأذنت وطلبت مغادرة الدوام بسبب شعوري بإرهاق مفاجئ مما جعلني أذهب للمنزل. وطلبت من سوسن عدم إيقاظي لأي سبب كان. لا أعلم ما الذي جعلني أستيقظ فجأة فأخذت أنظر إلى هاتفي فوجدت أنني لم أنم سوى قرابة الساعة وأن هناك عدة مكالمات من عاصم زميلي في الدوام.

لاحظت دخول بعض الضوء إلى الغرفة مما جعلني أدرك أن الباب لم يكن مغلقًا وبالرغم من أنني كنت مستلقيًا على جانبي الأيمن والباب خلف ظهري، إلا أني شعرت بخطوات سوسن تقترب من الباب وعلى ما يبدو كانت تتحدث مع أحدهم على الهاتف.

"حبيبي، ما زال نائمًا وأخشى إيقاظه لأنه حذرني من ذلك. حسنًا حسنًا، لا تغضب سأحاول إيقاظه".

تركت الجوال بسرعة وحاولت التظاهر بأنني ما زلت نائمًا. سمعت بعدها ارتطام شيء ما بالأرض. نظرت فإذا سوسن تقف بجوار طاولة صغيرة.

سوسن: "حبيبي، آسفة لأنني أيقظتك، ولكن حاولت أخذ شيء من الغرفة وارتطمت قدمي بالطاولة."

لا بأس، لقد استيقظت وأعتقد أنني سأنهض بعد قليل.

خرجت سوسن من الغرفة وطلبت منها عدم إغلاق الباب وبقيت مستلقيًا على السرير أفكر وأتساءل عن الشخص الذي كانت تتحدث معه. قطع تفكيري اتصال جديد من عاصم على هاتفي. حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها لك لا أعرف سبب شعوري أنه قد يكون هناك علاقة ما بين اتصالات عاصم وما فعلته سوسن وحديثها في الهاتف الذي استمعت إليه.

قررت تجاهل اتصاله وعدم الرد وأخذت أفكر في كيفية دحر هذه الأفكار المتولدة من هذا الشعور الغريب والمريب. بقيت في الغرفة وتظاهرت بالنوم مجددًا. لم تمضِ إلا بضع دقائق وإذا بسوسن تقترب من الباب وهي تتحدث بصوت منخفض مجددًا.

"يا حبيبي ماذا تريدني أن أفعل أكثر من ذلك؟ لقد استيقظ، ولكن يبدو أنه عاد للنوم مرة أخرى ... لا أستطيع إخباره بالنظر إلى هاتفه ... حسنًا حسنًا لا تغضب سأحاول مرة أخرى".

دقائق وعادت سوسن وقامت بإضاءة أنوار الغرفة: "حبيبي حسن، استيقظ فلقد طلبت طعامًا وأريد أن تشاركني فلا أحب الأكل بدونك. انظر إلى هاتفك فلقد نمت بما فيه الكفاية."

أدركت وقتها أن من كانت تحدثه عاصم أو شخص يعمل معي.

"لا بأس، لقد استيقظت."

أمسكت بالهاتف وأخذت أنظر إليه وقلت بصوت عالٍ وأنا أظهر أنني متفاجئ: "هناك عدة اتصالات من عاصم زميلي في العمل."

سوسن: "حقًا؟! ربما هناك أمر هام يتعلق بالعمل."

نظرت إليها عدة ثوانٍ دون أن أتفوه بكلمة.

فقالت سريعًا: "أو ربما أرادوا الاطمئنان عليك."

قررت مجاراتها وعدم إظهار أي إشارة تفيد بمعرفتي بشيء. قمت بالاتصال بعاصم وأخبرني أن المدير العام يسأل عن التقرير النصفي للعام المالي ويريده على الفور. أخبرته بمكان التقرير وطريقة الحصول عليه.

أثناء جلوسنا على طاولة الطعام، نظرت إليها وتفحصتها جيدًا وهي تأكل وتبتسم لي وكأن كل شيء على ما يرام. أخذت أتساءل: هل حقًا سوسن تخونني مع شخص ما؟ شخص أعمل معه وأراه بشكل يومي؟ ومن هذا الشخص؟ هل هو المشرف الذي كان يجب عليه تسليم التقرير؟ أم عاصم الذي كان يعمل معي على إعداد التقرير؟

سوسن: "ماذا هناك؟ لماذا لا تأكل وتنظر إلي؟"

أدركت حينها أنه يجب علي أن أكون حذرًا في تصرفاتي حتى أتمكن من معرفة كل شيء.

أجبتها أنني كنت أنظر إليك وأفكر كم أنا محظوظ بزوجتي الجميلة.

سوسن: "حبيبي، وأنا أكثر حظًا بوجودك في حياتي."

تبسمت وقلت في نفسي: "كم لكِ من حبيبٍ، يا أيتها الحرباء المتلونة."

قاطعني والدي قائلاً: "حسنًا يا راكان، توقف هنا."

والدتي: "دعه يكمل وأريد أن أعرف ماذا حدث؟"

ورد: "نعم يا والدي، أرجوك دعه يكمل؟"

والدي: "سنكمل لاحقًا، علينا الآن أن نرتاح قليلًا حتى نتمكن من الاستعداد لاستقبال المعزين".

اليوم الأول في العزاء

في يوم من الأيام، صادفت في أحد المقاهي كتابًا يتحدث عن خمس مراحل للحزن: الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب، وأخيرًا القبول. واليوم، أجد نفسي عالقًا في أعماق المرحلة الثانية، حيث الغضب يغلي في داخلي وبلغ ذروته، يطوق قلبي ويحرق روحي. أشعر بالغضب من رحيل أخي، من تلك السنوات الطويلة التي عاشها في وحدة وغربة، من أبي الذي كان سببًا في معاناته، ومن القدر الذي حرمه من وجودنا بجانبه.

أشعر بغضبٍ شديد حتى من نفسي، فكم تمنيت أن أكون بجانبه في تلك الأعوام العصيبة، ولكني لم أبذل ما يكفي للتواصل معه. لم يقتصر غضبي على أفراد العائلة فحسب، بل امتد ليشمل العالم كله.

على الرغم من أنني لم أنهِ قراءة تلك الرسائل بالكامل، إلا أن ما استوعبته منها كان أكثر من كافٍ لفهم حجم الألم الذي كان يعاني منه. الأحاسيس التي كنت أشعر بها أنا ووالدتي حول أنه كان مظلومًا وأن هناك أمرًا خفيًا كانت حقيقية، ولم تكن مجرد أوهام. وعلى الرغم من أنني كنت في سن الشباب، أقضي أيامي بين مقاعد الجامعة عندما رحل

حسن، فقد كان بالنسبة لي العمود الفقري في حياتي، الصديق الذي لا يخون، والأب الذي يحتضن بحنان ويغفر لي عندما أخطئ. لا يمكن لملاك مثله أن يتحول فجأة إلى شيطان.

مع انحسار أشعة الشمس واقتراب أذان المغرب، كانت هناك تلك الأرض الفارغة أمام منزلنا، حيث نُصب صيوان العزاء. بدأت أفواج المعزين تظهر تباعًا. في تلك اللحظات، استعدت ذكرى مضت قبل حوالي عامين عندما سافر حسن إلى الولايات المتحدة الأمريكية. حيث توفي وقتها والد أحد أصدقائي، واجتاحتني الحيرة حول ما يجب فعله. هل أكتفي فقط بالتواصل مع صديقي عبر الهاتف لتقديم واجب العزاء؟ فقد كانت الأجواء المليئة بالحزن في المآتم تثقل كاهلي وتزعجني. لكن حسن، بنبرته الدافئة، أوضح لي حينها أن الواجبات الإنسانية تتجاوز مجرد اتصال هاتفي، وأخبرني أنه سيأتي معي إلى العزاء للقيام بالواجب.

بعد تأدية واجب العزاء في ذلك اليوم، وبينما كنا في طريق العودة، التفت إليّ ورمقني بنظرة، وكأنها نظرة من يحمل وصية، وقال لي: "يا راكان، الحياة مليئة بلحظات الفقد، وفي تلك اللحظات يصبح الإنسان في حاجة ماسة لكل نوع من الدعم. سيأتي اليوم الذي يجعلك تدرك معنى كلماتي".

وها هو اليوم الذي تحدث عنه حسن قد أتى، مصحوبًا بحزن شديد وألم لا يُحتمل. لم أكن أتوقع أبدًا أن يكون هذا اليوم هو يوم عزائه. جلس والدي في مقدمة صف العزاء، يليه عمي والد سوسن الذي كان أصغر سنًا، وبقية أعمامي. وبينما كنت أستقبل المعزين، كان كل ما يشغل تفكيري هو متى تنقضي هذه الساعات الثقيلة، لأعود إلى منزلنا وأواصل قراءة الرسائل التي تركها خلفه.

عدت إلى المنزل بعد مغادرة الجميع وأخبرتهم أن يأتوا إلى غرفة المعيشة حتى نكمل قراءة الرسائل. كانت ورد تمشي بخطوات متسارعة وهي أول من وصلت إلى الغرفة، مما أتاح لي الفرصة لأعرف منها عن أحوال العزاء. ولكن، قبل أن أبدأ بطرح أسئلتي، بدأت هي بالتحدث.

ورد، بنبرة غضب مكبوته: "ألا تعلم يا راكان أن سوسن حضرت العزاء اليوم؟ لكن ليس هذا فقط، بل جاءت بلباس لا يعكس أي احترام لهذه المناسبة، بل على العكس. حتى أنني أردت الصراخ في وجهها حين رأيتها وهي تبتسم خلسة. غضبي منها وتجاهلي لها منذ صغر سني لم يكن بلا سبب."

راكان، محاولًا تهدئتها: "لا تدعيها تؤثر فيك، بالتأكيد تريد أن تثير غضبكم لتستمتع بذلك."

ورد: "أنت لا تعرف أختك جيدًا. جعلت أماندا تقف بجواري وكانت ترتدي ثوبًا أبيضاً ووشاحًا بنفس اللون جلبته لها والدتنا. ببساطة، كانت تبدو كأميرة رغم الحزن الذي طغى على ملامحها. حرصت على أن أعرف سوسن بها. كانت حيرتها ودهشتها لا توصف. لم يكن الأمر محصورًا في سوسن فقط، بل جميع الحضور كانوا يتساءلون من هي تلك الفتاة الجميلة وماذا تفعل هنا. ولكن الحمد لله، لم يكن لديهم القدرة على التحدث بالإنجليزية، وظللت بجوارها طوال الوقت، أشعر بأن قلبي بدأ يميل نحوها."

راكان، بفضول: "وماذا عن الصغيرين، محمد وسارة؟"

ورد، بنظرة حنونة: "أوه، هما نعمة حقًا! محمد، ببراءته، كان يقف هادئًا بجوارنا، بينما كانت سارة في أحضان والدتها، وأتيحت لي الفرصة لأحملها لفترة. حقًا، أتمنى أن أكون أمًا يومًا ما."

راكان: "وأين هما الآن؟"

ورد: "صعدا مع والدتهما إلى الطابق العلوي."

حضر والدي مع والدتي، وقبل أن نبدأ، طلب منا والدي الدعاء له بالرحمة والمغفرة. كما أخبرنا أنه أخبر أحد الأشخاص بعمل برادة مياه بجوار المسجد كصدقة جارية عنه.

قبل البدء في قراءة الرسائل، حرصت على إخبار والدي بألا يقبل تحمُّل أحد أقاربنا نفقات طعام العزاء في اليومين القادمين، كما جرت العادة بين أقارب المتوفى. لكنه أثلج صدري عندما أخبرني أنه رفض جميع العروض لتحمل النفقات. شعرت بأنه يشاركني بعض مشاعر الغضب التي كنت أحملها تجاههم. بالتأكيد، ما فعلوه في السنوات الماضية من حديث بالسوء عن حسن كان يضايقه كما كان يضايقنا، رغم عدم إظهاره لذلك. يبدو أن ما عرفه حتى الآن من الرسائل قد بدأ بالفعل في تغيير نظرة والدي للأحداث ومشاعره تجاهها.

الرسالة الثانية: بداية النهاية – الجزء الثاني

قضيت عدة أسابيع غارقًا في التساؤلات، محاولًا فك رموز الأحداث المشبوهة التي كانت تحيط بي. كانت الخيانة تترصد من بعيد، والغدر يسيطر على جوانب حياتي. كنت حذرا، حريصًا على ألا تثير تصرفاتي أي شكوك لدى سوسن. تجنبت كل ما قد يثير قلقها أو يجعلها تشك في تصرفاتي، مما جعلني أضاعف من حرصي في كل خطوة أخطوها. لم يكن الوصول إلى الحقيقة أمرًا سهلًا؛ فسوسن ليست فقط زوجتي، بل هي أيضًا ابنة عمي، الأخ المقرب لوالدي. إذا كانت شكوكي في محلها، فإن الأذى سيلحق بالعائلة بأكملها. ليس هذا فحسب، بل كان من الممكن أن يؤثر ذلك أيضًا على حياتي المهنية.

بينما كانت تلك الأسابيع تمر، حرصت على مراقبة المحادثات بيني وبين زميليّ في العمل، عاصم والمشرف. خاصة وأن التقرير كان يُعد من قبلي ومن قبل عاصم، ثم يُسلم إلى المشرف الذي يراجعه قبل تقديمه للمدير العام. اعتقدت أن أحدهما قد يكون وراء المكالمتين اللتين سمعتُهما. ورغم ظني أن كلاهما يعيش حياة زوجية هانئة، ولم يكن هناك ما يشير إلى عكس ذلك، لم أتمكن من السيطرة على مشاعري المضطربة وانفعالاتي المتقلبة. هذا الأمر أثر بشكل كبير على سلوكي

وتعاملي مع الآخرين في العمل وحتى في حياتي الشخصية. هذا ما يفسر تصرفاتي خلال تلك الفترة، وليس ما ادعته سوسن لاحقًا بأنني تناولت بعض المواد المحظورة، في محاولة منها لتغطية فعلتها الشنيعة.

رغم محاولاتي المستميتة لمعرفة الحقيقة، لم أتمكن من الوصول إلى أي شيء. لم أجد خيارًا آخر سوى اللجوء إلى أجهزة تنصت، في محاولة لرصد الأحاديث داخل منزلي وكشف أدق التفاصيل حول هذا الأمر المقزز.

لكن الخطة لم تكتمل، إذ لم أستطع تحمل المزيد.

في الليلة التي طلّقت فيها سوسن، وقبل أن أطلب منها مغادرة المنزل، أدركت كل ما كان يحدث خلف ظهري. كنا نجلس لتناول العشاء في الساعة الحادية عشرة مساءً، ولاحظت أنها مشغولة بالمراسلة عبر هاتفها المحمول، وتحاول جاهدة إخفاء ابتسامة ترتسم على وجهها، وكأنها تعلم في قرارة نفسها أن ما تفعله خطأ. لم أعد أستطيع تحمل غضبي المتزايد، فانتزعت الهاتف منها فجأة. بدأت تهاجمني محاولة استرجاعه أو على الأقل إغلاقه. كانت تبذل جهدًا كبيرًا، فوضعت الهاتف على الطاولة بعيدًا عن متناول يديها، ثم أمسكتها بكلتا يدي ودفعتهَا إلى غرفة النوم، وألقيتها على السرير قبل أن أسرع إلى الباب

وأغلقه. أصبحت تطرق الباب بجنون، تتوسل إليّ أن أفتح الباب وألا أنظر إلى الهاتف، مدعية أنها كانت تتحدث مع أختها في حديث خاص لا يجب لأحد الاطلاع عليه. تجاهلت توسلاتها، وتوجهت إلى الطاولة وأخذت الهاتف.

أقول في نفسي الآن: ليتني لم أفعل ذلك، ليتني لم أعرف هذا الأمر بهذه الطريقة وبكل هذه التفاصيل. فبعد مرور هذه الأعوام، ما زلت أتذكر تلك اللحظات بألم، وكأنني نكأت جرحًا قد اندمل.

وجدتها تراسل رقمًا حفظته باسم "أختي الحبيبة"، لكن المحادثات التي دارت بينهما لم تكن تشير أبدًا إلى علاقة أخوية. لما قمت بكتابة الرقم في هاتفي، ظهر لي اسم "عاصم!" تجمدت في مكاني، كأن الأرض ابتلعتني.

شعرت بتجاعيد الحزن تغزو وجهي وبدأت يدي ترتعش بقوة. كانت صدمتي عظيمة لدرجة أن نبضات قلبي بدت أعلى من صوت طرقها على الباب.

كانا يتحدثان عني بسخرية وعن مدى صعوبة العيش مع شخص ممل مثلي، شخص لا يهتم إلا بتأدية المهام المطلوبة منه وصاحب حياة رتيبة ومملة. وكيف يمكن لامرأة جميلة مثلها أن تضيع حياتها معي،

خاصة وأنهما كانا يشاركان صورهما من حين لآخر وسبق لهما اللقاء عدة مرات في بعض المطاعم والأسواق. هذا ما يمكنني أن أذكره، لأن ما تبقى أخجل من ذكره لك.

كأن الوقت توقف للحظات، حاولت فهم ما كان يحدث أمامي. تساءلت: "منذ متى بدأت هذه الخيانة؟ كيف عرف كل منهم الآخر؟ ولمَ هذا الشخص بالتحديد؟"

انطلقت وفتحت باب الغرفة، وألقيت الهاتف بقوة على الأرض، وكنت ثائرًا كأنني شيطان خرج من أعماق الجحيم، مما أذهلها وأرعبها من رد فعلي غير المتوقع. اقتربت مني محاولة توضيح الأمور قائلة: "حبيبي، دعني أشرح". لكن قبل أن تكمل جملتها، أمسكتها بقوة من شعرها وجررتها نحو المطبخ بغضب، وعندما وصلت أمسكت بسكين وقلت لها: "إن لم تخبريني كيف تعرفتِ عليه، فسأقتلك الآن!"

اجهشت سوسن بالبكاء وقالت: "سأخبرك بكل شيء، فقط دعني أتحدث."

ألقيت بها على الأرض وقلت لها: "الآن أخبريني ولا تكذبي، لأنني قرأت كل شيء وسأعرف إن كذبتِ."

قالت لي: "قبل قرابة العام والنصف، عندما توفي الجنين في بطني، شعرت بضيق شديد وملل، وأنت كنت مشغولًا وغائبًا بسبب العمل."

قاطعتها قائلاً: "لا تبرري خيانتك القذرة، أكملي كيف تعرفتِ عليه! وأخذت ألوح بالسكين."

سوسن: "حسنًا، حسنًا، في ذلك الوقت اتصل عاصم على هاتف المنزل لأنك نسيت هاتفك، وقد أخذ رقمك من إدارة الموارد البشرية، ومن بعدها اتصل عدة مرات وأصبحنا نتحدث. لم يكن هناك شيء جدي بيننا، مجرد تسلية وإضاعة وقت. والله، لم يحدث شيء أكثر من ذلك."

رددت بغضب: "لم يحدث شيء، يا فاجرة؟ وماذا تريدين أن يحدث أكثر من هذا؟ لقاءات وصور؟"

قمت برمي السكين بعيدًا وأخبرتها: "لن أنجس يدي بدمك."

طلقتها وأمرتها أن ترتدي عباءتها الآن فلم يعد لها مكان هنا، وأنها طالق. بعد أن أوصلتها إلى منزل والديها، شعرت بأن الغضب ما زال يملأ جسدي، فانطلقت مباشرة إلى مكان العمل وأوقفت السيارة في

المواقف المخصصة للموظفين وانتظرت وصول عاصم. على الرغم من أنه تبقى أكثر من ساعتين على بدء العمل.

بدأ الموظفون يتوافدون إلى المكان حتى ظهر عاصم يحاول إيقاف سيارته. اندفعت نحوه بمجرد أن همّ بالنزول، وبلا تفكير، انهلت عليه بوابل من اللكمات والشتائم، ولم أفق من غضبي إلا عندما أحسست بيدين تسحباني بعيدًا عنه.

بعد ذلك، جاء المشرف طالبًا حضورنا فورًا إلى مكتبه، لكنني لم أبالِ وانصرفت إلى سيارتي وعدت إلى المنزل. حاولت لساعات الخلود إلى النوم، لكن عبثًا كنت أحاول، مما دفعني للذهاب إلى الصيدلية القريبة بحثًا عن حبوب منومة.

لم يوقظني من النوم سوى دقات الباب العنيفة وصياح والدي المتكرر، مطالبًا إياي بفتح الباب. ما زلت أذكر تلك النظرات الجامحة التي احتلت عينيه وغضبه الشديد تجاهي بسبب ما فعلته مع سوسن. وما زاد الطين بلة، كان رفضه التام للإصغاء إليّ، مكتفيًا بما أخبره به عمي عن إعادتها إلى منزله في وقت متأخر وفي حالة يرثى لها، كما زعم. بل إن والدي ذهب إلى حد القول بأن تصرفاتي الأخيرة ومظهري يوحيان

بأنني قد أكون تحت تأثير المخدرات، وهو ما أدركت لاحقًا أن سوسن قد أشارت إليه لوالديها لتبرير ما حدث في تلك الليلة بالذات.

حاولت أن أخبره بما حدث، لكنه رفض الاستماع إليّ وطلب مني الذهاب فورًا إلى والدها والاعتذار له ولها. مما دعاني لرفض الأمر تمامًا وطلبي منه عدم التدخل في هذه المسألة. فأنا لم أقرر الارتباط بها، وليس من العدل ألا يكون لي القرار كذلك في تركها بعدما فعلته. بل أخبرته أنني طلقتها وأنها لا تحل لي بعد اليوم. أغلق الباب في وجهي وذهب.

وبعدها وجدت رسالة نصية على هاتفي من المشرف يخبرني فيها أن ما حدث غير مقبول، كما أن عاصم أخبره أنه سيذهب إلى الشرطة ويقدم بلاغًا ضدي.

تسرب الخبر كالسم الزعاف الذي ينتشر في الجسد، وما إن أدركت معنى الرسالة حتى اجتاحتني حالة غريبة، أدركت فيما بعد أنها نوبة هلع. دقات قلبي تحولت إلى طبول حرب تقرع في صدري، شهقات متقطعة كمن يحاول استعادة الهواء تحت الماء. راحت يداي ترتعشان كأوراق خريفية تتمايل على وقع عاصفة، وعيناي التي فتحت على مصراعيهما

تبحثان بجنون عن مخرج من هذا الكابوس الذي لم يكن إلا حقيقة ماثلة.

أصابتني رعشة لا توصف، يصحبها برودة تلف جسدي كله، فأحسست بأطرافي تفقد دفئها شيئًا فشيئًا. كل شيء حولي بدأ يدور، الجدران بدت كأنها تقترب مني لتحتجزني. أمسكت بأقرب شيء إلى يدي محاولًا استعادة توازني، لكن محاولتي باءت بالفشل.

أصوات العالم الخارجي اختفت خلف الطنين الذي ملأ أذني، طنين لا يبقي مجالًا لأي صوت آخر. كانت نوبة الهلع تلك رحلة إلى أعماق الخوف، رحلة مروعة تجسدت فيها كل مخاوفي من فضحية الخيانة وخسارة كل شيء ودخولي السجن. كانت كل ثانية تمر علي كساعة، وكل نبضة في قلبي تشير إلى خطر داهم يقترب. شعرت أنني غارق في بحر القلق اللامتناهي.

ثم، وسط هذا الفوضى العارمة، وجدت شعاعًا من الوعي يخترق سحب الهلع. بدأت أتنفس بعمق، وأخذت أصلي على الحبيب عليه أفضل الصلاة والسلام، وأرسلت إلى دماغي أوامر بالهدوء. استشعرت بالهواء يدخل إلى رئتي ويطرد مع كل زفير قطعة من الذعر الذي احتله.

ببطء، كنت استعيد أفكاري، وأعيد ترتيبها كما يرتب لاعب الشطرنج قطعه بعد تحرك غير محسوب.

استعدت توازني وأخذت أفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق. وبعد تفكير عميق وجدت أنه لابد من فعل أمر ما يجعل عاصم يتراجع عن فكرة البلاغ ويتنازل عنه. وقد ألهمني المولى عز وجل أن أرسل رسالة نصية إلى سوسن أخبرها فيها أنني قمت بتصوير جميع المحادثات وأنه في حالة لم يتنازل عاصم عن البلاغ، سأقوم برفع قضية عليه بتهمة التخبيب وأنني سأقوم بفضحكما، فلا يوجد شيء أخسره.

ويبدو أن الخطة نجحت، لأنه في اليوم الثاني اتصل علي المشرف وأخبرني أن عاصم تراجع عن تقديم البلاغ، معتبرًا ما حدث مجرد غيمة سوداء مرت في سماء صافية، مجرد سوء تفاهم زائل. ومع هذا، شعرت أنه لا يمكن لي الاستمرار في العمل، وعلي تقديم استقالتي في أقرب وقت ممكن، فأنا لا أستطيع الاستمرار في العمل بعد ما حدث، فكل شيء في ذلك المكان أصبح مرتبطًا بخيانة سوسن لي.

الرسالة الثالثة: قرار الرحيل

كانت الشهور التي تلت تلك الحادثة من أصعب فترات حياتي. كنت أشعر فيها بأنني في متاهة ضخمة، كلما حاولت الخروج منها، أعود إلى نقطة البداية. كانت هناك نيران بداخلي، اشتعلت تلك الليلة، ووقودها أصبح كل شيء تقريبًا حولي؛ الأماكن، الأسماء، وحتى محاولاتكم لإصلاح الأمر. لم يستطع أحد منكم فهم ما كنت أمر به. وإن كنت قد التمست لكم بعض العذر بسبب الشائعات التي كانت سوسن تنشرها في العائلة عن تغير أحوالي، لا سيما بعد تركي للعمل والحالة المزرية التي كنت أبدو عليها. كان كل ذلك يزيد من مصداقية أحاديثها. ولكن أنا ابنكم، وكان يجب عليكم معرفتي ومعرفة حقيقتي، وخصوصًا والدي الذي كنت أسعى طوال حياتي لنيل رضاه وألا أخيب ظنه.

هل تعلمين يا والدتي، أنه في يوم من الأيام أخبرني بأن سبب احمرار عيني هو تدخيني للحشيش! تخيلي ذلك؟ إلى هذه الدرجة لا يعرفني؟ ألم يخطر بباله أن السبب قد يكون نتيجة لبكائي بحرقة على أمر ما؟ أنا ابنه ومن صلبه كيف لا يقف في صفي؟

لا أخفي عليك أنه وبعد تلك اللحظة أدركت أنه لا فائدة من التواصل معكم. حتى أنتِ يا والدتي، كانت محاولاتك في إصلاح الأمر تزيدني نفورًا منه. كيف يمكن أن يُعامل الجاني والضحية بنفس الطريقة؟

لا أريد أن تفهمي أنني ألومكما أو أحمل أي مشاعر غضب تجاهكما الآن. لا والله، ولكني أريد إيضاح الصورة كاملة بتفاصيلها وحالتي في تلك الفترة.

أصبحت في تلك الفترة دائم المكوث في المقاهي، أبتعد عن الاختلاط بأي أحد في محاولة لإطفاء هذه النيران والابتعاد عن كل ما قد يزيد في اشتعالها.

لهذا اعتزلت الناس وكنت أتجنب الحديث معكم. حتى أنني قمت بزيارة طبيب نفسي، ولكني لم أستطع أن أخبره بتفاصيل ما حدث لي. كنت أخاف أن يعرف الأمر وكبريائي لم يسمح لي بأن أظهر بمظهر المغفل أمام أي شخص كائنًا من كان.

وقبل بضعة أشهر من سفري، قررت الذهاب إلى مكة المكرمة وأداء العمرة، بعدما شعرت أنني لم أعد أحتمل هذا الوضع وأن أطلب من المولى عز وجل أن يأخذ روحي ويريحني من هذه الحياة.

بعد انتهائي من العمرة، عدت مرة أخرى إلى الصحن وجلست مقابل الركنين وأخذت أدعو المولى القدير أن يريحني من هذا العذاب وكنت أجهش بالبكاء.

مكثت بعد ذلك قليلًا في المكان أستجمع قوتي استعدادًا للمغادرة، وإذا برجل كبير في السن بلحية بيضاء تشع نورًا يقترب مني.

الرجل: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف حالك يا ابني؟"

رددت عليه: "وعليكم السلام، أنا بخير، شكرًا لك."

الرجل: "ماذا بك؟ لقد كنت أراقبك من بعيد. شاب في عمرك لا يجب أن يظهر عليه كل هذا الحزن والضيق."

أجبته دون تفكير: "أنا متعب وأرغب في الرحيل."

فأجابني بأبيات الإمام الشافعي عن السفر قائلًا:

"تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا
وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ
وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ".

ثم مسح على صدري داعيًا الله أن يجبر بخاطري ثم غادر.

شعرت وقتها أن هذا الرجل كان كملاك مرسل من المولى عز وجل. على الرغم من معرفتي بهذه الأبيات، إلا أن السفر لم يخطر في بالي قط كحل. نعم، قد يكون السفر هو الحل الأمثل لبداية جديدة ووسيلة لإخماد هذه النيران التي تستعر بداخلي منذ شهور.

كنت طوال طريق عودتي أفكر في هذا الأمر، لا سيما أنه قد تكون فرصة أيضًا لتحقيق حلمي القديم الذي دفن مع الأيام، حلم إكمال دراستي.

شعرت فعلًا أن هذا هو الحل الأمثل، خصوصًا أن الدولة توفر برامج تساعد الطلاب على الانضمام إلى البعثة بعد البدء في الدراسة بالخارج. وأنا حاليًا ما زلت أملك بعض المدخرات بالإضافة إلى قيمة سيارتي، أستطيع النجاة هناك حتى يتم انضمامي للبعثة.

وربما ضيق الوقت هو الذي جعلكم لا تروني كثيرًا في هذه الشهور. أردت أن أنجز جميع الأوراق الخاصة بقبولي لدراسة الماجستير في أقرب فرصة ممكنة. وحرصت على اختيار جامعة في مدينة بعيدة لا يوجد بها الكثير من المبتعثين. وفعلاً، جاءني القبول الجامعي للبدء في الدراسة ابتداءً من الفصل القادم.

ولا أخفي عليكم حزني لرفضكم للفكرة، ولم أكن أرغب في فعل شيء لا يرضيكم، ولكن كان رحيلي هو البوابة الوحيدة لعودتي للشخص الذي تعرفونه.

لعل أكثر ما يمزق قلبي الآن وأنا أكتب هذه الرسالة هو استحضار تلك الذكرى الأخيرة التي جمعتني بكم، ذكرى ما زالت تفاصيلها تلاحقني بلا رحمة. تلك النظرات الحزينة والمكسورة في عينيكِ، والغضب الذي كان يتأجج في عيني والدي، والحيرة التي غلفت نظرات راكان وورد، كلها لم تُمحَ من ذاكرتي، وكأنها نقشت على جدران روحي للأبد.

لا أريد الكتابة عن هذه اللحظات، فأنا أشعر أني كلما ذكرتها يتدفق سيل من الدموع لا يمكن إيقافه.

منذ مغادرتي المنزل وذهابي إلى المطار بسيارة الأجرة، كنت أشعر بغربة شديدة ووحدة قاتلة. كنت وحيداً دون مودع أو مرافق، محاطاً بمشاعر الحزن والضيق. في صالة المطار، كان الجميع يرافقه شخص ما أو يودعه قريب أو حبيب. وعلى الرغم من تلك الأحاسيس التي كانت تلازمني طوال مدة الرحلة، إلا أنني عند وصولي إلى صالة مطار واشنطن دالاس الدولية شعرت ببعض الراحة، لأنني ولأول مرة منذ فترة طويلة، أعرف ماذا أريد.

اليوم الثاني في العزاء

استيقظت في اليوم التالي قرابة العاشرة صباحًا وأنا في حالة أفضل بكثير مما كنت عليه بالأمس. أعتقد أن هذا الشعور كان ينطبق أيضًا على والديَّ وأختي. على الرغم من ذلك، لاحظت بعض ملامح الأسى التي ارتسمت على وجه والدي بالأمس، خاصة عندما كنت أقرأ الأجزاء التي كان فيها حسن يعبر عن حزنه نتيجة لمواقف والدنا تجاهه. ومع ذلك، أكاد أجزم أنه في قرارة نفسه كان سعيدًا لأن ابنه لم يكن كما أشيع عنه.

اتجهت إلى المطبخ لأتناول أي شيء حتى استعيد بعضًا من طاقتي فاليوم في أوله. ولكنني وجدت والدتي تقوم بإعداد وجبة الإفطار. أخبرتني أنها ستعد شيئًا لي ولأختي أيضًا، لأن والدنا ذهب مبكرًا لزيارة قبر حسن والدعاء له.

أخبرتها عن مشاعر الارتياح التي أشعر بها جراء ما عرفناه من الرسائل التي قرأناها بالأمس. نظرت إلي وقالت: "تعلم يا راكان، لم أتفاجأ كثيرًا لأني أعرف ابني، وأعلم أنه لا يمكنه فعل ما قيل عنه. لكن ما يحزنني هو أني لم تتح لي أي فرصة لأخبره بذلك بشكل صريح ومباشر. فوالدك، هداه الله، عندما حرمني عليه منعني من أي تواصل معه".

لم أجب عليها، وأخذت أفكر قليلاً هل أخبرها الآن أم لا؟

نظرت إلي وسألتني: "أشعر أن هناك ما تريد إخباري به؟"

أجبتها: "في الحقيقة نعم، ولكن لا تغضبي مني. حسن يعلم بذلك وقد عرف مدى شوقك له."

بملامح مليئة بالاستغراب، سألت: "وكيف ذلك؟"

جلست على حافة المنضدة وقلت لها: "حسنًا، سأخبرك بالأمر. قبل عدة أسابيع، وصلني اتصال من رقم دولي غريب ولكني تجاهلته، ظنًا مني أنها مكالمة احتيالية. ولكن عندما استمرت الاتصالات من نفس الرقم، قررت الرد."

"يا قليل الأدب، هل تتجاهل مكالمات أخيك الكبير؟ ألا تخاف أن آتي وأضربك؟!"

راكان: "حسن؟! هل حقًا هذا أنت؟"

حسن: "نعم، ولكن لا تغلق الهاتف، فأنا أحتضر!"

راكان: "حسن، لا داعي لأن تقول ذلك. وأي نعم، أتذكر تحذير والدنا من التواصل معك، ولكن لم أكن أبدًا لأغلق الهاتف في وجهك."

حسن: "هذا هو العشم. ونسأل الله أن يغفر لنا. ولكن للأسف، هذه هي الحقيقة. قد لا تراني مرة أخرى."

راكان: "حسن، لماذا تقول ذلك؟ لم أعتد عليك أن تتحدث بهذه النبرة المتشائمة. أم أن حياتك في الخارج أنستك حسن الظن بالمولى عز وجل؟"

حسن: "لا، بالتأكيد ليس الأمر كذلك. ولكن مؤخرًا تم اكتشاف ورم سرطاني في الدماغ، ويبدو أن الأمور أكثر تعقيدًا مما كنت أتصور. الطبيب أخبرني أن العملية الجراحية ضرورية، لكنها تحمل نسبة نجاح ضئيلة جدًا. أتعلم ربما كان الورم نتيجة للضغوطات والأزمات التي مررت بها خلال السنوات الماضية. ومع ذلك، لحسن ظني بالمولى عز وجل، وجدت نفسي أتصل بك لأشاركك ما يحدث."

سألت مستغربًا: "حسن ظن بالله، وكيف وما العلاقة؟"

حسن: "لو كنت أشعر فعلًا أنها النهاية لا محالة، لما كنت بحثت عن رقمك وتواصلت معك. بل كنت تواصلت مع والدتنا على الأقل

وكذلك والدنا. ولكن قررت الاتصال بك كخطة بديلة في حالة لا قدر الله لم تنجح العملية، حتى أكون مطمئنًا أن عائلتي ستكون في أيدٍ أمينة."

راكان: "أنا راكان ولست أمينة هاها."

أستطيع أن أرى من ملامحك يا والدتي أنك مستغربة من أسلوبي في الحديث الذي يبدو غير ملائم لهذا الموقف، لكن لم يكن أمامي سوى اللجوء إلى الدعابة كوسيلة لأخفف من وطأة الصدمة. فقد كانت تلك النكت والضحكات درعي الوحيد للتعامل مع هول الخبر، ومحاولة جعل الواقع المؤلم أكثر احتمالًا بالنسبة لي.

صمت حسن للحظة وقال: "الآن حقًا أفكر بإغلاق الخط."

راكان: "لا تفعل ذلك، ماذا حدث لحس الفكاهة لديك؟"

حسن: "اسأل نفسك، هل هذه حقًا فكاهة؟ لا تجعلني أشعر بالندم أني تركتك من دون أن تكتسب مني خفة الظل. المهم، لقد تزوجت ورُزقت بمحمد وسارة."

راكان: "ما شاء الله، يبدو أنك لا تضيع وقتك."

حسن: "نعم، لكن الآن أشعر أنني كذلك. ما كل هذه الفكاهة التي تملكها؟ كان الأجدر بك أن تصبح ممثلًا كوميديًا."

راكان: "نعم، أفكر في ذلك."

حسن: "حسنًا، دعك من هذا كله ولا تضيع الوقت. سأغلق الهاتف الآن، لكن سأتواصل معك في الفترة القادمة، لذا قم بالرد على اتصالاتي."

بعد ذلك، كنا نتواصل بشكل شبه مستمر وكان يخبرني ببعض الأمور عن حياته هناك وعن زوجته وكيف تعرف عليها وكيف أصبحت شريكة حياة حقيقية له وكذلك عن مدى حبه لها.

ولكن في يوم من الأيام، أثناء حديثنا، أخبرني أنه مشتاق جدًا لسماع صوتك، ولهذا طلب مني الذهاب إليك وترك الهاتف مفتوحًا حتى يتسنى له سماع صوتك.

هل تذكرين يا والدتي قبل فترة قريبة عندما جئت إليك بينما كنت تصلين الفجر وانتظرتك حتى تنتهي وسألتك عن حسن وماذا تعتقدين قد حل به؟

والدتي: "نعم، أذكر جيدًا، حتى أنني أخبرتك أنني كنت أدعو له في صلاتي أن يجبره الله ويعيده لنا منصور وموفق."

نعم، في تلك اللحظة كان حسن يستمع لحديثنا، وهذا الشيء جعلني أطيل الحديث عنه. أذكر جيدًا ما قلته أنه لا شك لديك أن حسن لا يمكن أن يأتي منه إلا كل خير، وأنه ظُلم، ولكن ما باليد حيلة.

حسن استمع لكل ذلك. وبعدما ذهبت، تحدثت معه وسمعته يبكي ويردد: "الحمد لله، الحمد لله."

دمعت عين والدتي وخرَّت ساجدة للمولى عز وجل وهي تحمد الله. ثم نهضت واحتضنتني وهي تقول: "أرحت قلبي وأثلجت صدري يا راكان."

في تلك الأثناء دخلت الغرفة ورد قائلة: "ما شاء الله، ولماذا لا أحصل على هذه المعاملة؟ أم لأنني فتاة؟"

فقامت والدتي باحتضاننا جميعًا وهي تدعو أن يحفظنا ويطيل في أعمارنا.

بينما كنت أستعد لاستقبال المعزين في اليوم الثاني، قدم إلي والدي يسألني إن كان هناك أمر ينقصني أو إذا ما كان يستطيع المساعدة في

شيء ما. أخبرته أن كل شيء على ما يرام. فوضع يده على كتفي وقال لي: "رضى الله عليك يا ابني، فعلاً قد أكرمني المولى بك وبأخيك رحمه الله. نعم الولد ونعم السند."

في الواقع لم أعتد على والدي يتحدث بهذه الطريقة المليئة بالدفء والحنان، لكن سمعت أن أصعب فقدان هو فقدان الأب لابنه. لأنه يقال من المفترض أن يحمل الابن جثمان والديه وليس العكس. فعلاً شعرت أن رحيل حسن كسر شيئًا فيه. ربما كسر الجمود والشدة التي كان يتصف بها.

كان اليوم الثاني أكثر هدوءً، أو ربما أنا الذي كنت كذلك.

وكالعادة في نهاية اليوم، اتفقنا على أن نجتمع لقراءة الرسائل المتبقية. قبل أن أغادر غرفتي، رأيت ورد مقبلة عليّ ويعتريها بعض مشاعر الخوف والقلق. قبل أن أتحدث، بادرتني قائلة:

"راكان، أعتقد أني قد ارتكبت خطأ فادحًا."

راكان: "وماذا فعلتِ؟"

ورد: "سأخبرك بالقصة كاملة وأدع لك الحكم على ما فعلت. حضرت سوسن اليوم للعزاء، ولكن هيئتها كانت أقرب لشخص يحضر مناسبة سعيدة وليس عزاء. لم يقتصر الأمر على ارتداء ملابس لا تليق بالعزاء، بل وضعت أيضًا بعض مساحيق التجميل. أعتقد أن السبب في ذلك هو الغيرة التي تملؤها تجاه مظهر أماندا. ليس هذا فقط، بل كانت تبالغ في الابتسام والأحاديث التي لا تنم أبداً عن مشاعر الحزن أو احترام المناسبة، بل العكس تماماً. كان الأمر لافتًا حتى أن إحدى صديقاتي أخبرتني: ما خطب هذه المرأة ولماذا تفعل ذلك؟ حاولت تمالك نفسي ولكنني لم أستطع."

قاطعتها قائلًا: "ألم أخبركِ بالأمس أنها تحرص على استفزازكم وعليكم تجاهلها."

فأجابتني: "نعم، أتذكر ذلك، ولكن صدقني لو رأيت ما رأيته، لكنت قمت بضربها أو طردها من المنزل."

راكان: "حسنًا، وماذا فعلتِ؟!"

ورد: "اقتربت منها وطلبت منها أن تتوقف عما تفعله."

فأجابتني: "ورد حبيبتي، ماذا هنالك؟ لم أفهم قصدك؟"

عندها لم أتمالك نفسي وقلت لها: "هل تعلمين يا سوسن أن حسن - رحمه الله- قبل أن يتوفى أخبرنا بكل شيء. كل شيء يا سوسن وأنتِ بالتأكيد تعرفين ماذا أقصد."

نظرت إلي بابتسامة خبيثة وقالت: "ورد حبيبتي، تعلمين أنه لا يجوز الحديث عن الميت إلا بخير ولا أرغب في الحديث عن حسن. ولكن الجميع كان يعلم أن حسن لم يكن في حالة طبيعية ويتوهم الكثير من الأمور جراء ما كان يتناوله. رحمه الله، ولكن أنتِ من جعلتني أذكر هذا الأمر."

هنا اشتط غضبًا منها، ولكن حاولت تمالك نفسي واقتربت من أذنها وقلت لها بصوت منخفض: "ولكن يا سوسن، قد رأينا صور المحادثات وقريبًا سيعلم الكل بالحقيقة."

هنا تغيرت ملامحها تمامًا واتسعت حدقة عينيها ولم تتحرك من مكانها. أكملت كلامي وقلت لها: "لذا يا ساقطة، الزمي الأدب ولا تتحدثي أبدًا عن أخلاق حسن. وتركتها في تلك الحالة وعدت إلى مكاني."

راكان: "حسنًا فعلتِ، ولكن كنت أتمنى أن لا تقولي الجملة الأخيرة."

ورد: "أي جملة؟"

راكان: "أن الجميع سيعلم الحقيقة."

ورد: "نعم، كنت أتمنى ذلك، ولكن هذا ما حدث."

راكان: "وماذا فعلتِ بعد ذلك؟"

ورد: "ظلت في حالة ذهول وصمت، ثم غادرت."

راكان: "حسنًا، لنذهب الآن لنكمل قراءة الرسائل ولا تخبري أحدًا بما حدث حتى نرى لاحقًا ماذا سنفعل."

الرسالة الرابعة: الحياة في الشهور الأولى

ركبت طائرة من مطار واشنطن في رحلة طويلة إلى مدينة بعيدة تقع في شمال غرب الولايات المتحدة، مدينة تبعد عن الجامعة التي سأدرس فيها عدة ساعات. كانت الجامعة في مدينة صغيرة تتركز حولها الحياة كلها، يمكن وصفها بالمدينة الجامعية حيث كل شيء يدور حول الحرم الجامعي. هذا الأمر جعلني أواجه تحديات كبيرة في العثور على سكن بسعر مناسب، حيث كانت معظم الأماكن مشغولة، مما اضطرني لدفع مبلغ كبير يفوق ما اعتاد عليه طلاب المدينة. بالإضافة إلى ذلك، كنت مضطرًا لدفع مبلغ إضافي كتأمين على السكن. ولم يكن هذا كافيًا، فقد شعرت بضرورة امتلاك سيارة بسبب عدم توفر وسائل نقل مناسبة.

قررت شراء سيارة مستعملة لكنها بحالة جيدة، كما اشتريت بعض الأمور الضرورية للمنزل. في البداية، كان كل شيء يسير على ما يرام، خصوصًا أنني كنت أملك مالًا كافيًا لتغطية التكاليف حتى يتم قبولي في البعثة التي ستعوضني عن تكاليف الدراسة خلال السنة الأولى من الماجستير، كما أخبرني البعض.

في الأسبوع الأول، حضرت يومًا تعريفيًا خاصًا بطلاب الدراسات العليا في قسمي. يا والدتي العزيزة، لا أخفيك أنني شعرت بأن الفارق بيني وبين

زملائي شاسع؛ فقد بدا لي أن معظمهم يصغرونني بتسع أو عشر سنوات على الأقل، إذ يكمل العديد منهم دراستهم العليا مباشرة بعد التخرج من البكالوريوس. ومع ذلك، حرصت على التعرف على الجميع من طلاب وأساتذة. لاحظت نظرات الاستغراب في وجوه الآخرين، وكأنهم يتساءلون: "من هذا الشخص المليء بالحيوية والنشاط في هذا العمر؟" ورغم أنني لم أبلغ سوى الثانية والثلاثين، شعرت وكأنني تجاوزت الأربعين. للأمانة، كان الجميع يتحدث معي بلطف وود.

مرت الأسابيع الأولى من الدراسة بشكل جيد، رغم بعض الصعوبات التي واجهتها في فهم بعض الأمور، فقد كنت بعيدًا عن مقاعد الدراسة لأكثر من ثماني سنوات. كان يشغلني في تلك الأسابيع استعادة ذاتي وثقتي ، وتحقيق شيء عظيم يجعلكم فخورين بي ويثبت أنني كنت المظلوم وليس الظالم.

لم أتمكن من تكوين الكثير من الصداقات بسبب فارق العمر، كما أن اهتمامي كان منصبًا على الدراسة. أُصبت ببعض الإحباط عندما ظهرت نتائج الاختبارات بعد شهر ونصف تقريبًا، حيث شعرت أنها لا تعكس الجهد الكبير الذي بذلته. ومع ذلك، حاولت تشجيع نفسي على الاستمرار في الاجتهاد، وأقنعتها بأنني لم أعتد بعد على أساليب التدريس هنا.

بدأت مشاعر الوحدة تتسلل إلى قلبي، فكنت أفتقدكم كثيرًا، وأشتاق للجلوس معكِ يا أمي، ولتلك المشاعر التي تجتاحني عندما أتحدث معكِ وتشعرني بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

للأسف، لم تكن نتائج اختبارات الفترة الثانية أفضل بكثير من سابقتها، مما زاد من قلقي، خاصة وأننا قد تجاوزنا منتصف الفصل الدراسي ولم يتبقَ الكثير على الاختبارات النهائية. بدأت أخشى أنني إذا استمر الوضع على هذا الحال، قد لا أنضم إلى البعثة، وأن ما أملكه من مال لن يكون كافيًا لتغطية مصاريف الحياة، ناهيك عن مصاريف الدراسة في حال عدم قبول البعثة أو تأخرها.

يبدو أن شهر العسل الذي كنت أعيشه قد شارف على الانتهاء، وأنني سأعود إلى الحالة النفسية والذهنية التي كنت عليها سابقًا. كنت أعلم أنني هنا وحيد بكل ما تعنيه الكلمة، وأعلم أنني لن أستطيع طلب مساعدة أحد، لا سيما والدي، لأن هذا الأمر قد يعزز الصورة الذهنية التي رُسمت عني، وأن ذهابي إلى أمريكا كان مجرد استمرار لحالة التهاون والضياع التي كنت فيها.

لذا بدأت في التفكير فيما يجب عليّ فعله لتحسين الوضع. قررت أن أتجنب صرف الأموال إلا على الضروريات، وكذلك البحث عن عمل جزئي. وانطلقت هنا رحلتي مع التوفير، بدايةً من تعلم بعض الطبخات

المنزلية وتجنب الإكثار من استخدام السيارة لأن الوقود كان مكلفًا. كما بدأت بغسيل وكي الملابس بنفسي بدلاً من الاستعانة بالمغاسل.

لم أكن أعلم أن الطبخ ليس بالأمر السهل، ولكن حمدًا لله على وجود البيض والمعكرونة. اكتشفت أنه مهما كانت مهاراتي في الطبخ سيئة، ستكون النتيجة قابلة للأكل بعكس الأطعمة الأخرى. كنت أكتشف أن إعداد وجبة صغيرة بسيطة يمكن أن يكون تحديًا بحد ذاته، وخاصة عندما كنت أواجه مشكلة في استخدام الفرن أو تحديد مقدار الملح والتوابل. ومع مرور الوقت، بدأت أستمتع بتجربة وصفات جديدة، وشعرت بنوع من الرضا عندما أتمكن من إعداد وجبة متكاملة بنفسي.

كنت أبحث عن عمل مناسب بحيث لا يؤثر على دراستي، لأنه كان من المهم جدًا أن أعمل على تحسين درجاتي والحصول على معدل دراسي مرتفع في أول فصل دراسي. ولكن كانت المشكلة في عدم قدرتي على العمل خارج الحرم الجامعي. بحسب ما أخبرتني به إحدى الموظفات بأن الطلاب الأجانب غير مسموح لهم العمل بوظيفة خارج الجامعة بناءً على قوانين تأشيرة الدخول التي امتلكها كطالب غير أمريكي، مما جعلني أضمن إلى قائمة انتظار طويلة للراغبين في الحصول على وظيفة داخل الحرم الجامعي.

كان دائمًا يراودني شعور بعدم التوفيق نتيجة عدم رضا والدي عني. شعرت أن كل شيء لا يسير على ما يرام. ما جعل هذه المشاعر تتأكد لدي هو تعرضي لحادث سيارة، ونتيجة لنوعية التأمين التي كنت أملكها، كان يتوجب علي تحمل تكاليف إصلاح السيارة، والتي كانت توازي القيمة التي دفعتها لشراء السيارة. كانت هذه لحظة قاسية جدًا، حيث شعرت بأن كل جهودي للتوفير قد تبخرت.

هنا تملكتني مشاعر الإحباط واليأس، لاسيما أن وسائل النقل لديهم غير جيدة، كما أن فصل الشتاء اقترب ودرجات الحرارة تكون بالسالب. كنت أجد نفسي مجبرًا على السير في الطقس البارد لمسافات طويلة للوصول إلى الجامعة أو لقضاء بعض الاحتياجات الحياتية المختلفة. كانت الرياح الباردة تخترق ملابسي وكأنها سكاكين حادة، تجعل كل خطوة أمضيها وكأنها مغامرة في أرض جليدية. كان الثلج يتراكم على الطرقات ويجعل السير فيها أشبه بالمشي على حقل ألغام، حيث كانت كل خطوة قد تؤدي إلى انزلاق مؤلم.

أحيانًا، كنت أضطر إلى الانتظار في محطات الحافلات لفترات طويلة، أحاول تدفئة نفسي بطرق بدائية مثل احتضان حقيبتي أو نفخ الهواء الدافئ على يدي. كانت أصابعي تتجمد وأقدامي تتورم من البرد، وكثيرًا ما

كنت أعود إلى المنزل وأجد أنني فقدت الإحساس ببعض أطرافي من شدة البرد.

وفي بعض الأيام، كانت الثلوج تتساقط بغزارة بحيث تصبح الرؤية محدودة، وكان علي أن أواجه هذه الظروف القاسية للوصول إلى المكتبة أو حتى البقالة لشراء احتياجاتي الأساسية. كان الأمر يتطلب مني عزيمة قوية وإرادة حديدية للاستمرار في مواجهة هذه الظروف، ولم يكن هناك من يخفف عني أو يشارك معي هذه المعاناة.

كنت أدفع نفسي دفعًا لأنه لا خيار أمامي سوى الاستمرار، وأحيانًا كنت أشعر بأنني أعيش في صراع مستمر مع الطبيعة القاسية والبرد القارص. كلما اشتدت الرياح وزادت برودة الطقس، كنت أذكر نفسي بأهدافي وأحلامي التي جئت من أجلها، وأحاول أن أجد في ذلك قوة تحفزني على المضي قدمًا. كنت أتخيل اللحظة التي سأحقق فيها النجاح وأعود إليكم يا أمي وأنا مرفوع الرأس، وكان ذلك يساعدني على تحمل الصعاب.

ما زاد الأمر سوءًا هو قرب نهاية الفصل الأول، وبالتالي كان علي دفع رسوم الدراسة الخاصة بالفصل الثاني، بما أنني لم أنضم بعد للبعثة. هذا يعني أن ما تبقى لي من المال لن يكفيني سوى لبضعة أشهر قليلة. كانت هذه الضغوطات المالية تزيد من توتري وقلقي، حيث كنت أدرك

أن عدم تمكني من دفع الرسوم سيعني نهاية حلمي وتوقفي عن الدراسة.

كنت بشكل مستمر أقوم بزيارة القسم الخاص بطلاب كليتي من أجل السؤال عن توفر وظيفة، وكنت ألاحظ تململهم من سؤالي المستمر. كنت أدخل المكتب كل يوم تقريبًا، وأنتظر بصبر حتى يحين دوري للحديث مع الموظفين، لأكرر نفس السؤال: "هل هناك أي وظائف شاغرة؟" كانت وجوههم تعبر عن الضيق، وكأنهم يقولون لي بصراحة إنهم سئموا من سماع نفس السؤال يومًا بعد يوم.

في يوم من الأيام، أخبروني بصراحة أنه لا داعي لقدومي كل يوم، وأنهم سيتواصلون معي في حال توفر وظيفة. شعرت حينها بإحباط شديد، وكأن بابًا آخر يغلق في وجهي. كنت أسير خارج المكتب بخطوات بطيئة، أحاول أن أستجمع ما تبقى لدي من قوة وصبر لمواصلة رحلتي.

الرسالة الخامسة: الحياة قبل أماندا

كان كل شيء ضدي. كل المحاولات كانت تضيع هدرًا، ولا شيء يتغير سوى للأسوأ. سأخبركِ يا والدتي بشيء قد لا تعلميه. عندما بدأت أشعر أن جميع ما أملكه من مال شارف على النهاية، ولم يبقَ في حسابي سوى ما يكفيني لشهرين فقط. وهنا أقصد ما يكفي لدفع رسوم السكن بالإضافة إلى الطعام والتنقل. لم يكن هناك خيار لدي سوى طلب المساعدة من والدي. بالرغم من أنني كنت لا أتمنى ذلك أبدًا، ولكن ما باليد حيلة.

كنت أعلم في قرارة نفسي أن هذا الأمر لن يجدي، ولكن كان هناك بصيص أمل أن يتفهم الأمر، فأنا البكر وفي غربة، ومهما كان يظل هو والدي. كم كنت أتمنى أن أكون مخطئًا، وأن لا يكون ظني في مكانه، ولكن للأسف حصل ما كنت أخشاه. فبمجرد أن أجاب على الهاتف وسمع صوتي، أنهى المكالمة وهو يخبرني أني لست ابنه، وأنه لا يعرفني.

وبعد انتهاء الفصل الأول وظهور النتائج التي لم تكن كما أرجو، أخبرني الأشخاص أن فرصتي في الانضمام للبعثة قد تقلصت، وبالتالي هذا يعني أنه يجب علي تحمل مصاريف الدراسة كاملة، وإلا لن أستطيع

إكمال الماجستير. بالرغم من أنني قد قمت بدفع رسوم الفصل الدراسي الثاني، تبقت سنة كاملة دون الإشارة إلى مصاريف العيش الأخرى.

ما فاقم الأمر سوءًا هو أن الفترة التي كانت بين الفصلين كانت فترة إجازة، وكان الجميع تقريبًا يغادر المدينة لزيارة ذويهم. هذا النوع من المدن الجامعية يصبح أشبه بمدينة أشباح خلال الإجازات، حيث تُغلق أغلب الأماكن والمباني الجامعية. وبما أننا كنا في شهر ديسمبر، كانت درجات الحرارة منخفضة، وكنت أحرص على قضاء أكبر وقت ممكن في المباني الجامعية بدلًا من السكن بهدف توفير تكاليف التدفئة.

أصبحت أشفق على نفسي ولما وصلت إليه حالي من بؤس وحاجة. لم أعرف هذا القدر من الضعف في حياتي. حتى عندما أحاول الهروب من هذا كله بالنوم، كانت الكوابيس تطاردني وتجفي النوم من عيني. تملكني اليأس والإحباط بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت أفكار الفشل وسخرية الآخرين ترافقني. لم أعد أطيق الجلوس في المنزل لأنه أصبح كالكهف الموحش الذي لا يسكنه سوى الظلام.

فأصبحت أحاول الخروج والتجول في أرجاء المدينة شبه الخاوية كمحاولة مني لطرد كل هذه المشاعر والأفكار ولكن دون جدوى. وفي

يوم من الأيام، وأثناء محاولاتي اليائسة في النوم، قررت أن أنهي كل هذا. نعم، قد تستغربين من ذلك، ولكن شعرت أن الموت هو الحل لكل ذلك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أفكر فيها في الانتحار، ولكني تعوذت بالله من الشيطان، ونهضت من السرير وذهبت للوضوء وصلاة ركعتين. ثم عدت للنوم. عند استيقاظي، عادت الفكرة مرة أخرى إلى ذهني، ولكن أخبرت نفسي أنه يتوجب علي مقاومتها.

قمت بارتداء ملابسي والخروج من المنزل متجهًا إلى أحد المقاهي القليلة التي ما زالت تعمل خلال فترة الإجازة، في محاولة لتغيير الأجواء ومقاومة مشاعر الإحباط واليأس والوحدة. كان الجو شديد البرودة، والثلج يتساقط بلا توقف. وصلت إلى محطة انتظار الحافلات، ولاحظت أن الحافلة قد اقتربت وأنه يتوجب علي الإسراع للحاق بها. أثناء محاولتي ذلك، انزلقت قدمي وسقطت على الأرض. وقتها قلت في نفسي...

"سأتوقف هنا؛ إذ لم أعد قادرًا على الاستمرار. لم أكن يومًا أرغب في ذلك، ولكني الآن لست قادرًا على المضي قدمًا. قد غابت كل الدوافع التي كانت تدعوني للسعي والمحاولة، بل إنني أصبحت أدفع نفسي

وأجتهد في حثها على عدم التوقف والاستسلام. لكم لم يعد هناك ما يدعو للبقاء."

عدت إلى المنزل وأنا مثقل بالهموم، وكأنني كنت أنا من يحمل قدمي وليس العكس. دخلت المنزل وألقيت المفاتيح على الطاولة بلا مبالاة. جلست على الأريكة وأغمضت عيني للحظات، في محاولة مني لعزل نفسي عن هذا الواقع المرير الذي وصلت إليه. كان الصمت يخيم على المنزل، يعكس الفراغ الذي أشعر به، مما جعل شعوري باليأس يتعمق أكثر.

أخبرت نفسي أن الله غفور رحيم، وهو يعلم بحالي ويعلم بمحاولاتي، فبالتأكيد سيغفر لي. لم أرد فعل ذلك، ولكن جميع الأبواب كانت موصدة، وأصبحت الحياة بمثابة سجن كبير لا يمكن العيش فيه.

أخذت ورقة وقلمًا، وعزمت على كتابة بعض الرسائل لأقوم بإرسالها إليكم. خشيت أن تبقى جثتي هنا لأسابيع دون أن يعلم أحد عني. سأختم هذه الرسائل بعنواني حتى تتمكنوا من إبلاغ السلطات عن وفاتي. أعلم أنه لا يوجد أحد في هذه القارة كلها يهتم لأمري، وربما في العالم بأسره. أعرف أن هذا الكلام يبدو قاسيًا، ولكن هذا جزء مما كنت أشعر به في تلك الأيام.

بدأت في كتابة أول رسالة:

لا أعلم أن كانت هذه رسالة وداع أم صرخة نداء...

لا أعلم لماذا ما زلت أعتقد أن كلماتي قد تغير الحال، بالرغم من أن جميع أفعالي كانت بلا جدوى...

لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله وما يجب عليّ تجنبه...

ولكنني متأكد تمامًا أنني أصبحت أعلم أنني لا أنتمي لهذا العالم، وأن على أحدنا الرحيل.

كان كل ما يشغلني أثناء كتابتي للرسائل هو اختيار الطريقة الملائمة للانتحار. كنت أبحث عن طريقة مريحة وغير درامية. لم أرغب في طريقة تشوه شكلي لأنني شعرت أن هذا الأمر قد يزيد من صعوبة الوضع بالنسبة لكم. أعلم أن الحديث لا يبدو منطقيًا، ولكن حينها كان كل شيء غير منطقي.

لم أجد أنسب من تناول مجموعة كبيرة من الحبوب.

في الواقع يا والدتي، لا أعلم كيف كنت أفكر وكيف لم يخطر على بالي مدى القصور في نظرتي. أين حسن الظن بالمولى عز وجل؟ وأين الصبر على الابتلاء؟

كان جزء من الرسائل يحكي باختصار ما حدث وما كنت أعيشه. كنت أفعل ذلك كله وأنا أرجو أن تفهمي لماذا أقدمت على هذا الأمر. عندما انتهيت كتابة الرسائل، ترددت في إرسالها. خشيت أن يعلم الآخرون أن وفاتي كانت نتيجة الانتحار، لأنه بالتأكيد سيُكتب ذلك في تقرير الوفاة. مما دعاني إلى التفكير في طريقة أقتل نفسي فيها بحيث يبدو الأمر قضاءً وقدرًا. وبعد التفكير، وجدت أنه من الممكن أن أرمي نفسي أمام حافلة مسرعة، لا سيما مع هذه الأجواء، فقد يبدو الأمر وكأنني لم أرَ الحافلة أو أنني انزلقت أو ما شابه.

نعم، تبدو هذه الفكرة هي الأنسب، ولكن يجب علي التأكد من أن تكون الحافلة مسرعة.

استيقظت في اليوم الذي قررت فيه الرحيل من هذا العالم الظالم والمظلم. ارتديت ملابسي ببطء، وكأن كل قطعة ملابس كانت تثقل روحي، وحرصت على حمل بطاقات تحمل بياناتي حتى يعرفوا هويتي. خرجت إلى الشارع وكانت السماء ملبدة بالغيوم، والرياح باردة، وكأنها تعكس حالتي الداخلية.

توجهت إلى محطة الحافلات، ووقفت في مكان بعيد عنها أنتظر. شعرت بالبرد يتسلل إلى عظامي، لكني لم أكترث. كانت الحافلة تقترب بسرعة، وأخذت الأفكار تدور في رأسي. عندما اقتربت الحافلة بما يكفي، نطقت الشهادتين، أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقًا، ثم خطوت خطوة واحدة إلى الأمام. ولكن سمعت صوت عالي يناديني: هسسسن.

الرسالة السادسة: دخول أماندا في حياتي

فتحت عيني ونظرت تجاه الصوت، فوجدت إحدى الموظفات التي كنت ألتقيها في القسم الذي أرتاده للبحث عن وظيفة. كانت تردد اسمي وهي مقبلة علي، لهذا لم أستطع تجاهلها.

نظرت إليها قائلاً: "أهلاً، هل تحتاجين شيئاً؟"

أجابتني: "أنا أماندا، أعمل في قسم التوظيف في الكلية."

فقلت: "أهلاً أماندا، كيف يمكنني مساعدتك؟"

أماندا: "ماذا تفعل هنا؟"

ارتابني الخوف قليلاً أن تكتشف ما كنت أقدم عليه، مما سيفسد كل شيء. فأجبتها: "لا شيء، كنت أمشي قليلاً."

أماندا: "لا أقصد ماذا تفعل الآن، ولكن ماذا تفعل في هذه المدينة؟ الجميع رحل ولم يبقَ سوى عدد قليل من سكان المدينة."

حسن: "آه، لا أملك مكاناً أذهب إليه. كما تعلمين، أنا طالب هنا ولا أملك أي أقارب في المدينة أو في الولايات المتحدة بأكملها."

أماندا: "هل أستطيع طلب مساعدة منك؟"

حسن: "أعتذر، فأنا مشغول."

كنت فقط أريد منها أن تذهب بعيداً، لكنها لم تفعل ذلك.

أماندا: "أرجوك، أريد مساعدتك في حمل بعض المشتريات إلى المطعم الذي يملكه والدي في نهاية الشارع. لن يأخذ الأمر الكثير من وقتك".

بعد الحاحها المستمر كان لابد لي من مساعدتها حتى تتركني لشأني. حملت معها المشتريات، واتجهنا إلى المطعم الذي يملكه والدها. كانت كثيرة الكلام والحديث، لكني لم أعرها أي انتباه، وحاولت مجاراتها ببعض الابتسامات الزائفة تارة والإيماء برأسي تارة أخرى. عندما وصلنا إلى المطعم، وضعت الأغراض وطلبت منها أن تسمح لي بالمغادرة، لكنها رفضت وأخبرتني أن علي المكوث قليلاً بينما تعد لي شيئاً لأشربه. أخبرتها أني لا أشرب الكحول، فنظرت إلي مبتسمة وقالت:

"ومن قال شيئاً عن الكحول؟ هل تحب الشوكولا الساخنة؟"

فأجبتها أني لا أحبها وأن علي حقاً الرحيل.

فقامت بمناداة والدها: "أبي، أرجوك تعال وساعدني في التعامل مع هذا العربي العنيد."

قلت في نفسي ماذا تريد هذه المزعجة مني. ولماذا ما زلت واقفا هنا. اخبرتها بصوت حاد وملامح جادة: "أعتذر سوف اغادر. وتوجهت إلى الباب."

"هبيبي كيف هالك؟"

توقفت قليلاً واستدرت، فرأيت رجلاً مسناً يبدو من ملامحه أنه قد تجاوز السبعين، ولكنه كان يتمتع بصحة جيدة. قال بصوت ودي: "لا أعرف سوى بعض الكلمات العربية، لأنني كنت أعمل في إحدى الشركات في السعودية."

ثم تابع حديثه قائلاً: "ليس الكرم حكرًا على العرب وحدهم، فنحن أيضاً كذلك. أرجوك، اجلس معنا قليلاً، ودعني أعبر عن شكري لك على مساعدتك لابنتي."

أخبرت نفسي أنه لا يمكن أن أكون فظًا إلى هذا الحد، لا بأس بالمكوث قليلاً. وللأمانة، كان والد أماندا شخصًا ودودًا ولطيفًا. جلسنا قليلاً وأخذ يحدثني عن عمله وحياته في السعودية، وعن قصتهما هو وزوجته في إنشاء المطعم، والسبب في ذلك أنهما كانا يرغبان في المكوث بجوار أماندا أثناء دراستها. ومن حسن الحظ أنها تسنى لها الحصول على وظيفة في نفس الجامعة التي تخرجت منها. كما أنهما

كانا يسألاني عن الحياة هنا وعن سبب رغبتي في إكمال الدراسة. لم أخبرهما بالكثير لأن كل ما كان يشغل تفكيري هو الانتهاء من كوب الشوكولا الساخنة والعودة إلى المنزل.

عندما انهيت شرب الشوكولا الساخنة، استأذنت منهما وأخبرتهما أن علي الرحيل الآن لأن الوقت تأخر. لكن والد أماندا أصر على إيصالي إلى المنزل، وأخبرني أنهما أيضًا سيغلقان المطعم ويرحلان. بالرغم من محاولتي العودة إلى المنزل بنفسي، رفضا ذلك وأخبراني أن الوقت تأخر وأنه لا توجد حافلات، وأنهما يسكنان بالقرب مني. فوافقت على مضض.

أوصلاني إلى المنزل، وكنت أشعر بتعب غريب، لذلك توجهت إلى غرفتي واستلقيت على السرير وغطيت في نوم عميق. لم يوقظني سوى طرقات على الباب. كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها شخص لزيارتي. من يا ترى يأتي إلي؟

فلا أحد من الطلاب يعرف منزلي، كما أن صاحب السكن لم يزرني قط ولم أره إلا في اليوم الأول. توجهت إلى الباب وقمت بفتحه.

"صباح الخير"

فأجبت بملامح يملأها التعجب: "أماندا؟ ماذا تريدين؟ وما الذي أتى بك؟"

أماندا: "قبل أن أجيبك، هل تسمح لي بالدخول؟ الجو بارد بالخارج".

اعتذرت منها ودعوتها للدخول.

أماندا: "يبدو أنك كنت متعبًا بالأمس، حتى أنك لم تقم بتبديل ملابسك".

حسن: "نعم، نعم، لقد كان يومًا طويلًا وشاقًا. ولكن أخبريني، ما سبب قدومك هنا؟ وكيف عرفتِ مكاني؟"

أماندا: "يبدو أنك نسيت أني أعمل في قسم توظيف الطلاب وأن لدي جميع بياناتهم. لكنني تفاجأت من أمر ما، لم أكن أعتقد أنك تجاوزت الثلاثين من عمرك. كنت أظن أني أكبر منك."

أجبتها بابتسامة مصطنعة: "شكرًا لك، ولكن لم تجيبيني عن سبب حضورك؟"

أماندا: "لقد وجدت لك الوظيفة التي كنت تبحث عنها."

حسن: "كيف ذلك والجامعة مغلقة؟"

أماندا: "سأريك بنفسي، ولكن الآن اذهب وبدل ملابسك، سأكون في انتظارك بالسيارة. ولا تفكر في عدم القدوم لأنني سأعود مرة أخرى وأزعجك."

أجبتها بالموافقة. ذهبت لغسل وجهي والوضوء وأنا أتساءل عما تريده مني. ما فعلته بالأمس لا يستحق كل هذا اللطف. وبدافع الفضول قررت أن أذهب معها.

ركبت بجوارها واتجهنا إلى مركز المدينة. حاولت معرفة طبيعة العمل الذي تتحدث عنه، لكنها رفضت إخباري واكتفت بقول إن علي الانتظار.

أوقفت السيارة أمام مطعم والدها، وطلبت مني النزول. وافقت وأنا أتساءل ماذا بعد ذلك.

دخلنا إلى المطعم، ولم يكن فيه سوى شخصين يتناولان الطعام ووالدها.

أماندا: "أخبرتك يا والدي أني سأجلبه وأقنعه."

حسن: "إقناعي بماذا؟"

أماندا: "أعلم أنك كنت حريصًا على الحصول على وظيفة، ولكن بحكم تأخرك في التقديم على الوظائف لم تتمكن من العمل في الجامعة. حسنًا، يمكنك العمل هنا معنا."

حسن: "أنتِ تعلمين أن القوانين لا تسمح لي بذلك."

أماندا: "نعم، ولكن ستعمل داخل المطبخ ولن يعلم أحد بذلك. كما أنك ستساعد في توضيب المكان بعد رحيل الزبائن."

حسن: "لا أظن هذا العمل مناسبًا لي."

أماندا: "ولماذا؟ هل تعلم أن غالبية الوظائف الجزئية في الجامعة تكون في مطاعم الجامعة؟ كما أنهم يدفعون الحد الأدنى من الرواتب، ولكن هنا سيكون الدفع مجزيًا. وإن كنت تخاف أن يراك أحد من الطلاب، فلا تقلق، لن يراك أحد."

حسن: "الأمر ليس كذلك، ولكن..."

أماندا: "هل تعلم أنك متعب جدًا؟ ألا تعرف قول نعم؟ أرجوك، اقبل العمل. والدي صعب المراس، ولكن عندما أخبرته عنك وافق من دون تردد."

صمت للحظات، ثم أخبرتها أن تعطيني فترة للتفكير في الأمر. بعد ذلك استأذنت منهما واستقليت حافلة إلى المنزل.

قضيت اليوم وأنا أحاول استيعاب ما يحدث. من هي أماندا وما قصتها؟ لماذا كل هذا اللطف؟ هل تريد مني شيئًا؟ وإن كان، فما هو هذا الشيء؟ هل أملك شيئًا ذا قيمة حتى ترغب فيه؟ أم ربما هذا باب فرج قد فُتح لي، وأنا حقًا في أمس الحاجة إلى عمل.

عزمت على التمسك بطوق النجاة الذي ألقته لي وأخبرت نفسي: ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ إذا ساءت الأمور، سأعود إلى خطتي القديمة وأنهي كل شيء. بل إن هذا الأمر قد يصب في صالحي، فكيف لشخص يعرفه بعض الأشخاص ومقبل على الحياة أن ينتحر؟ ستبدو وفاتي حينها قضاءً وقدرًا، وبشهادة أماندا ووالدها.

قبل الخلود إلى النوم، وصلني رسالة نصية تحتوي على النص التالي:

"هاي. أنا أماندا، أتمنى أن تنال قسطًا كافيًا من الراحة. غدًا هو اليوم الأول في العمل. كن جاهزًا، سآتي لآخذك في الصباح الباكر. ليلة سعيدة".

حقًا، هذه الفتاة عجيبة وربما صغر سنها هو ما يجعلها مليئة بكل هذه الحيوية. لم تُرِها الحياة بعد وجهها الآخر.

استلقيت على سريري، أفكر في هذه الفرصة الجديدة التي لم أكن أتوقعها. شعرت بمزيج من القلق والأمل. فربما، فقط ربما، تكون هذا بداية جديدة لحياتي.

حاولت أن أنام، لكن الأفكار كانت تتدفق في ذهني بلا توقف. ماذا لو كان هذا هو التحول الذي كنت أنتظره؟ ماذا لو كانت أماندا هي فعلاً بداية طريق جديد؟

في تلك الليلة، وبينما كنت أحاول تهدئة عقلي، قررت أن أعطي هذه الفرصة كل ما لدي. غدًا سيكون بداية جديدة، وسأكون جاهزًا لها. غلبني النعاس أخيرا. كان في داخلي بصيص من الأمل، شعاع من نور لكنه كان كافٍ ليجعلني أستمر ليوم آخر.

استيقظت باكرًا وقمت بتهذيب ذقني، فقد شعرت أني بدأت أبدو كشخص مشرد. تناولت طعام الإفطار وارتديت ملابسي منتظرًا وصولها.

وصلت أماندا وركبت معها السيارة متجهين إلى المطعم. عند وصولنا، توجهنا إلى المطبخ، وأخبرتني أنه في الفترة القادمة وحتى نهاية الإجازة، ستكون متواجدة في المطعم، وأنها ستأخذني معها بالسيارة في الصباح الباكر وتعيدني إلى المنزل في نهاية اليوم.

قلت لها أنه لا حاجة لذلك، حيث أنني أملك سيارة ولكنها في ورشة التصليح، وأنني معتاد على ركوب الحافلة. لكنها أصرت وأخبرتني بابتسامة لطيفة وبحزم ممازحة لي أنه من اليوم يجب عليّ تعلم الاستماع لها لأنها نائبة المدير.

في الواقع، كانت فتاة لطيفة ومرحة على الرغم ملامحها التي ترتسم عليها الجدية. أتذكرها عندما كنت أزور قسمهم للبحث عن وظيفة. كانت دائمًا تجلس على مكتبها أمام الحاسب وتجيب على الأسئلة بملامح جادة وإجابات مختصرة.

استمر الحال على ما هو عليه، وكنت أشعر كل يوم أننا نتعرف على بعضنا بشكل أكبر من خلال أحاديث مقتضبة أثناء العمل.

كل يوم كنت أزداد يقينًا بأن جمال مظهرها لم يكن سوى انعكاس بسيط من جمال جوهرها. رغم أنني لم أكن أنجذب عادة إلى الشقراوات، إلا أنها كان استثناءً.

كانت عذبة الحديث، واسعة الاطلاع، عكس ما كنت أعتقده عن الفتيات الأمريكيات والفكرة التي كانت مترسخة لدي أنهن سطحيات وفارغات.

مع مرور الوقت، بدأت أرى في أماندا شخصية ملهمة، تحمل في داخلها مزيجًا من الجدية والمرح، وقدرة على التكيف مع الظروف. كانت تجلب الأمل والنور إلى أي مكان تذهب إليه، وتجعلني أشعر بأن الحياة تستحق العيش مهما كانت الصعوبات.

في أحد الأيام، بينما كنا نعمل معًا في المطبخ، نظرت إليها وقالت بابتسامة دافئة: "تعلم يا حسن، الحياة مليئة بالتحديات، لكن الأصدقاء الجيدين يجعلونها أسهل."

ابتسمت وأجبتها: "نعم، وأنتِ أفضل مثال على ذلك."

توطدت علاقتي بأماندا مع مرور الأيام، حيث كنت أراها بشكل يومي. ومع بداية الفصل الدراسي الثاني، كنت أحرص على رؤيتها أثناء ذهابي للمحاضرات، وكانت تأتي في نهاية اليوم بعد رحيل الزبائن لمساعدتي في ترتيب المطعم.

تحسن أدائي الدراسي بشكل ملحوظ، وربما يعود الفضل في ذلك إلى شعوري بالاستقرار. الآن أمتلك نقودًا كافية لتغطية تكاليف المعيشة، وحتى في حال تأخر قبول انضمامي إلى البعثة، فإن العمل الجاد في الصيف قد يوفر لي ما يكفي لدفع تكاليف فصل دراسي آخر.

أثناء أحاديثي مع أماندا، أخبرتني عن مسابقات تُنظم للأبحاث العلمية وتقدم جوائز مالية مجزية، مما شجعني على المشاركة في بعض هذه المسابقات كخطة بديلة.

انتهى الفصل الدراسي الثاني وعامي الأول في الماجستير، وبالرغم من أنني لم أحقق أي مراكز متقدمة في المسابقات البحثية، إلا أن معضلة دفع التكاليف الدراسية قد حُلّت والحمد لله. فقد تم قبول طلبي بالانضمام إلى البعثة، وتكفلت البعثة بتعويضي عن تكاليف دراسة العام الأول كاملة، ما مكنني من شراء سيارة جديدة، وأصبح لدي أيضًا راتب شهري من الملحقية السعودية.

في أحد أيام الصيف، طلبت مني أماندا مرافقتها ووالدها في نزهة إلى منطقة قريبة تطل على بحيرة ويوجد بها أماكن مخصصة للجلوس والشواء. أخبرتني أن والدها يريد اصطحابها معه، وأنه سيكون مع صديق له، لذا دعتني لتجنب الشعور بالملل.

كان الجو جميلاً والسماء زرقاء صافية كالمرآة. طلبت مني أماندا أن نجلس أمام البحيرة، تاركين مهام الشواء للصديقين القديمين ومشاجراتهما اللطيفة حول الطريقة المثلى لإعداد الطعام. كانت تبدو مشعة أكثر من الشمس بفستانها الأصفر الحريري، وشعرها الذي يتراقص مع نسمات الرياح، وابتسامتها التي تضيء وجهها بالفرح. شعرت وكأنها تمثال ذهبي حي، وأحسست بأن العالم من حولنا قد تلاشى، وكأننا كنا في فقاعة زمنية خاصة بنا. كانت كلماتها تتدفق كالموسيقى العذبة، تلامس روحي وتنساب في أذني كأنغام خالدة.

التفتت إلي وسألتني بتعجب: "ما بك؟ لماذا تحدق بي هكذا؟"

فأجبتها: "لا شيء، ولكن هل تعلمين أنك من أجمل ما رأيت؟"

أماندا: "حقًا، شكرًا لك. وأنت كذلك تبدو كأمراء العرب الوسيمين. حسن، هل أنت سعيد؟"

فأجبتها: "بالتأكيد."

أماندا: "وأنا أيضاً سعيدة. أرجوك أن تظل كذلك دائماً وأن تعلم أني بجوارك."

تعجبت قليلًا من جملتها وسألتها عن سبب قول شيء كهذا.

أماندا: "سأخبرك بشيء بما أننا أصبحنا أصدقاء وأصبحتَ من أقرب الناس إليّ. لا أملك الكثير من الأصدقاء كما تعلم، لأنني كنت أقضي معظم وقتي مع والدي، خاصة بعد وفاة والدتي."

حسن: "آسف لسماع ذلك."

أماندا: "شكراً لك. هل تعلم كيف رحلت والدتي؟"

حسن: "لا أعتقد أنك سبق وأن أخبرتني بذلك."

أماندا: "حسن، لقد انتحرت."

اتسعت حدقتا عيني وبدت علي علامات الارتباك، لكنها أكملت حديثها ولم تدع لي مجالاً للتعليق.

أماندا: "لا تقل شيئاً، دعني فقط أكمل حديثي. عندما انتقلنا إلى هنا وبدأت في دراسة البكالوريوس، قدِمَ والدي معي وافتتحا المطعم، لكن الأمور لم تكن تسير على ما يرام وكانا يخسران الكثير من المال. نتيجة لهذه الضغوطات، اتجه والدي لشرب الكحول وأسرف في ذلك، مما جعله يتصرف بعنف مع والدتي. كانت والدتي تحبه منذ الصغر وكانت

امرأة مرهفة الإحساس، وكان ما يفعله يحزنها كثيراً. بالرغم من محاولاتها إقناعه بالتوقف عن ذلك، إلا أن الأمور كانت تزداد سوءاً بينهما. كانت من أكثر الفترات الصعبة في حياتي. لأني كنت لا أستطيع فعل شيء."

حسن: "أنا حقا اسف لسماع ذلك. ما رأيك ان تتوقفي عن الحديث في هذا الأمر لأني اشعر أنه يجلب لك الكثير من الحزن وحتى أنه بدا واضحا في نبرة صوتك وتعابير وجهك."

أماندا: "لا لقد تجاوزت هذا كله. دعني أكمل لك فعندي هدف من إخبارك بالقصة. هل تعلم يا حسن أنني اعجبت بك منذ الأسبوع الأول؟"

حسن: "حقا؟ وكيف ذلك؟"

أماندا: "لقد شدني حماسك وروح المبادرة التي كنت تمتلكها في اليوم التعريفي. شعرت أنك كنت مقبلاً على الحياة."

حسن: "نعم أتذكر هذا اليوم جيدًا. في الواقع تلك الفترة كانت تمثل أجمل فتراتي في أمريكا."

أماندا: "ولكن في تلك الليلة، عندما رأيتك مصادفة بالقرب من المحطة ونظرت إلى عينيك، انتابني قلق شديد وخوف لا يوصف."

حسن: "ولمَ ذلك؟"

أماندا: "لأنني سبق وأن شاهدت هذه النظرة على وجه والدتي قبل انتحارها. كانت نظرات غارقة في بحر من الحزن العميق. شعرت أن عيناك تشبهان نافذتين مطلتين على هاوية مظلمة. وكأنك تستعد لفراق لا رجعة فيه."

لا أعلم ماذا يجب علي قوله لأنها كانت تصف بالفعل ما كنت أشعر به. ساد الصمت لعدة لحظات ثم قلت لها: "لهذا كنتي مصرة على أن لا تتركيني لوحدي."

أماندا: "نعم وحتى أني اقنعت والدي بفكرة أن تعمل لديه."

نظرت إليها بغضب وقلت لها بنبرة حادة: "إذا لقد فعلتي ذلك كله بدافع الشفقة علي؟!!"

أمسكت يدي وقالت: "هسن الأمر ليس كذلك فقط. أخبرتك أني كنت أملك مشاعر إعجاب تجاهك منذ الوهلة الأولى. كما أني عندما اقتربت

منك وعرفتك أكثر أحسست أني لم أشعر بهذا القدر من الإعجاب تجاه أي شخص عدا والدي."

حسن: "لا بأس. دعينا نعود لنرى ماذا صنعوا."

أماندا: "سنعود ولكن عدني أن نبقى أصدقاء وأن لا تدع شيئًا يزعجك. وتذكر أني دائما موجودة حولك ومستعدة لسماعك في أي وقت ترغب في الحديث عن أي شيء تريده."

حسن: "اتفقنا."

قضينا وقتًا ممتعًا معًا، ورغم أنني لم أتحدث كثيرًا مع أماندا، إلا أنه كان واضحًا أن كلاً منا يحمل الكثير من الأمور التي يود أن يبوح بها للآخر. كانت الكلمات على أطراف ألسنتنا، تنتظر اللحظة المناسبة للخروج.

عندما وصلت إلى المنزل وقبل أن أبدل ملابسي، تلقيت رسالة نصية من أماندا تعتذر فيها إذا كان حديثها قد أفسد يومي. في الواقع، لم أرَ الأمر كذلك؛ بل على العكس، شعرت أن كل ما فعلته من أجلي جعلني أقدر صدق مشاعرها ونقاء روحها. أجبتها برسالة نصية وأخبرتها أنها لم تفعل ذلك.

في اليوم التالي، اتصلت بها وأخبرتها أن تفرغ نفسها لي لأني أرغب في قضاء اليوم معها. وافقت وأخبرتني أنها ستنتظرني في منزلها الساعة السادسة.

بالرغم من أننا كنا نلتقي بشكل مستمر، إلا أن هذه المرة شعرت وكأنني ذاهب إلى موعد غرامي، لما كنت أحمله من مشاعر تجاه أماندا. حضرت إلى منزلها في الموعد المحدد، واتجهنا معًا إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام التي أحدثت ضجة عند صدورها. بعد الفيلم، قررنا تناول العشاء في أحد مطاعم المدينة الفاخرة.

في المطعم، كانت الأجواء ساحرة. الضوء الخافت والشموع المضيئة على الطاولات أضافت لمسة رومانسية على المكان. جلسنا في زاوية هادئة، حيث يمكننا الحديث دون مقاطعة. كان لدي شعور غريب بالراحة والقلق في آن واحد، وكأنني على وشك مشاركة جزءٍ عميق من نفسي مع أماندا.

بينما كنا ننتظر وصول الطعام، كنت أشعر بأن قلبي ينبض بسرعة. بدأت أماندا تسألني عن حياتي، وكانت عيناها تلمعان بالاهتمام. لم أستطع مقاومة ذلك الإحساس الذي اجتاحني، شعرت بأنني بحاجة لمشاركتها قصتي.

بدأت أحكي لها عن كل شيء، عن الخيانة وخذلان الأحبة، عن الأوقات التي شعرت فيها بالضياع والحزن. كنت أرى في عينيها تفهمًا عميقًا واهتمامًا حقيقيًا، مما جعلني أشعر بالراحة أكثر في الاستمرار بالحديث.

لم أكن أعلم لماذا اخترت هذا الوقت والمكان لمشاركة قصتي، ربما لأنني شعرت بأن أماندا هي الشخص الوحيد الذي يمكنه فهمي حقًا. كان هذا اللقاء في المطعم الفاخر نقطة تحول في علاقتنا، حيث شعرت بأن هناك رابطًا قويًا يتشكل بيننا، رابط يتجاوز الصداقة العادية.

عند عودتنا وقبل أن تودعني قامت باحتضاني بقوة وشكرتني على هذا اليوم الجميل.

"في اللحظة التي تلامست فيها أناملك بجسدي، اجتاحني شعور غامر بأن الحياة قد انبثقت من جديد داخل عروقي وتسربت إلى كل زاوية من جسدي. لم تكن مجرد ملامسة يدك ليدي، بل كانت لمسة تخترق الروح، توقظها من سباتها. في تلك اللحظة الخاطفة، شعرت كأنني أحيا من جديد، تنفست الحياة بكل جوارحي."

كان ذلك أول شيء أكتبه منذ زمن طويل، ينبض بين كلماته بفرح شديد وسعادة عارمة.

الرسالة السابعة: نقطة التحول في علاقتي مع أماندا

لم أكن يا والدتي أستطيع تقبل فكرة هذا المقطع الذي قالت فيه أم كلثوم:

صالحت بيك أيامي

سامحت بيك الزمن

فكيف لشخص ما أن يجعلك قادرًا على تجاوز كل ما حدث لك من معاناة ومتاعب في هذه الحياة؟ كيف يستطيع تضميد كل هذه الجروح؟ لكنها جعلتني أدرك أن ذلك ممكنًا. لأن كل ما كان قبلها أصبح لا يهم ولا يعني شيئًا. فأنا أشعر أن الحياة لم تبدأ فعلًا إلا معها.

مضى العام الثاني، ولله الحمد، حصلت على درجة الماجستير بمعدل مرتفع، وكان كل شيء يسير على ما يرام. كم تمنيت، يا والدتي، أن تكوني حاضرة في حفل التخرج. كان المكان مليئًا بالأهل والأصدقاء. طلبت من أماندا أن تحضر الحفل لتلتقط لي بعض الصور لأريك إياها لاحقًا، لكنها فاجأتني بالحضور مع والدها. لقد أضحكتني كثيرًا عندما سمعتها

تصرخ بحماس عندما نودي اسمي للصعود إلى المنصة لاستلام شهادة التخرج. لا أخفيكِ أن ذلك أسعدني كثيرًا، فقد كنت أرغب بشدة في وجود شخص يشاركني هذه الفرحة.

كانت أماندا حاضرة معي في جميع اللحظات السعيدة والصعبة. كنت أشعر أنها تملك الحاسة السادسة التي كنتِ تخبرينني عنها. فعندما أشعر بالضيق أو الملل، أجد رسالة منها أو اتصالاً تخبرني فيه أنها تريد أن تراني أو تريد الذهاب إلى مكان ما كدار السينما أو مطعم.

لم تكن أموري المالية سيئة، خصوصًا بعد انضمامي للبعثة، لكن بعد حصولي على شهادة الماجستير توقف الراتب الشهري المقدم من الملحقية. وما تبقى معي من مال كان يكفيني للبقاء عدة أشهر فقط، أو ربما سنة كحد أقصى. كنت في حيرة من أمري: هل أعود إليكم الآن وقد حققت هدفي، أم أبقى وأواصل دراسة الدكتوراه، نظرًا لأن هذه الفرصة قد لا تتكرر مستقبلًا؟ كما أن العودة بشهادة الدكتوراه ستكون أفضل بكثير من العودة بشهادة الماجستير.

أماندا حفزتني على إكمال الدكتوراه بما أنني أنهيت الماجستير بمعدل مرتفع، وبالتالي هنالك فرصة لا بأس بها أن أجد مشرفًا يمكنني العمل تحت إشرافه، وسيقوم بالتكفل بجميع المصاريف المالية بالإضافة إلى

مرتب شهري لا بأس به. أخبرتني أماندا عن مسابقة في مجال يتعلق بالبحث الذي قدمته في مرحلة الماجستير، وأن الجائزة هذه المرة ستكون خمسمئة ألف دولار، وأن حصولي على أحد المراكز الأولى سيضمن لي بالتأكيد الحصول على مشرف في مرحلة الدكتوراه.

كان الموضوع بالنسبة لي مغريًا جدًا، ولا يوجد شيء أخسره. فليس علي سوى إضافة بعض الأمور على البحث ثم تقديمه. وحتى إن لم أحصل على الجائزة أو لم أجد مشرفًا، سأكون قادرًا على قضاء المزيد من الوقت مع أماندا، وكان هذا الأمر كافيًا.

أعلم أنك يا والدتي قد تستغربين وأنتِ تقرئين كلامي هذا، وقد تشعرين أنني لم أعد أفكر فيكم أو أشتاق إليكم، ولكن هذا غير صحيح تمامًا، وعليكِ أن تسألي أماندا عن مدى حديثي عنكم طوال الوقت، لا سيما أنتِ.

أضفت بعض الأمور وقمت ببعض التعديلات على البحث، ثم قدمته للمسابقة.

في إحدى الليالي، تلقيت اتصالًا من أماندا في وقت متأخر وكانت تجهش بالبكاء. ما فهمته منها أن والدها قد تعب واضطروا لطلب الإسعاف ونقله إلى المستشفى، وأنه في حالة خطيرة.

نهضت على الفور وارتديت ملابسي وانطلقت إلى المستشفى. وجدت أماندا واقفة أمام العناية المركزة وهي في حالة انهيار شديد. بمجرد رؤيتي اقتربت منها، صرخت منادية اسمي والدموع تملأ عينيها.

أماندا: "آسفة على إزعاجك، ولكن لم أفكر بالاتصال بأحد سواك وأنا في هذه الحالة."

قمت باحتضانها وأخذت أمسح الدموع بيدي عن خدها في محاولة لتهدئتها، وطلبت منها أن تطمئن، وأخبرتها أنني لن أبرح مكاني وسأبقى بجوارها.

أماندا: "لا أعلم ماذا حدث له، كان يشعر بإرهاق شديد ووجدت دمًا في القيء، وكان يخبرني أنه لا يستطيع التنفس."

أخبرتها ألا تقلق وأن كل شيء سيكون على ما يرام. جلسنا في الاستراحة ننتظر خروج أحد الأطباء للاطمئنان على حالته. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى خرج الطبيب المشرف على حالته وأخبرنا أنه من الواضح أنه مصاب بالتهاب شديد نتيجة لإصابته بتلف في الكبد. وأن الحالة مستقرة، ولكن علينا الانتظار حتى يتم إجراء بعض الفحوصات له ومن ثم يخرجه من العناية المركزة.

مكثنا أنا وأماندا في غرفة الانتظار ويبدو أنها كانت متعبة جدًا، فوضعت رأسها على كتفي وغطّت في نوم عميق. مضت عدة ساعات حتى خرجت الممرضة وأخبرتنا أن حالته مستقرة ويمكننا أخذه إلى المنزل بعد قليل.

أيقظت أماندا وأخبرتها بما قالته الممرضة. كانت سعيدة جدًا وضمتني وهي تقول: "شكرًا لوجودك في حياتي." ومن ثم همت بتقبيلي مما دفعني إلى الابتعاد عنها قليلًا.

أماندا: "ماذا بك؟"

أجبتها: "لا شيء، ولكن يجب عليّ الذهاب لشراء قهوة لي ولكِ."

سكتت قليلًا ثم قالت: "حقًا، قهوة؟ الآن تريد جلب القهوة؟ ماذا هناك؟ لماذا ترفض تقبيلي أو حتى تبتعد عني كلما اقتربت منك وكأنك تشمئز مني؟ أم أنك حقًا أصبحت تصدق أننا أصدقاء؟"

أجبتها بارتباك: "نحن حقًا أصدقاء، لماذا تقولي هذا؟"

فأجابتني غاضبة: "لا يوجد أصدقاء يقضون كل هذا الوقت سويًا، أو يمضون ليلة في المستشفى؟"

عندها قلت لها وأنا أهم بالمغادرة: "أماندا، أتوقع أن الظروف الحالية هي من تسبب هذا التوتر واضطراب المشاعر. سأذهب الآن لإحضار القهوة."

وما أن شرعت بالمغادرة صرخت قائلة: "اهرب كالعادة يا جبان، فأنت معتاد على الهروب وهذا ليس بأمر جديد عليك! اذهب إلى الجحيم، أنا أكرهك."

هنا توقفت والتفت إليها وكان الغضب يملأني: "حقًا؟ أنتِ تقولين ذلك؟ بعد كل ما أخبرتك به؟"

أماندا: "نعم، أنت جبان."

نظرت إليها بنظرات حادة دون أن أتحدث، ولكن لم أستطع السكوت طويلًا وقلت لها: "أنتِ حمقاء، هل تعرفين ذلك؟ ماذا تريدين مني أن أفعل؟ تعلمين أني مسلم ولا أستطيع القيام بأي علاقة خارج إطار الزواج."

ضحكت بسخرية وقالت: "مسلم، وماذا تسمي الذي كان بيننا إذا؟"

أجبتها بحزم: "نعم، مسلم، وإن كنت مقصرًا ومذنبًا، فهذا لا يعني أن أتمادى في الأمر. هل تعتقدين أن الأمر يسير بالنسبة لي أن أراكِ وأخرج معكِ وأنا لا أستطيع تقبيلك أو احتضانك؟! هل تعتقدين أني متبلد الأحاسيس والمشاعر، بالطبع لا. ولكن كنت أفعل ذلك لأني لا أريد أن أخسركِ ولا أن أفسد ما كان بيننا."

أماندا: "أنت الآن تفسد كل ما بيننا."

قلت لها: "سأضطر للمغادرة الآن، ولكن تذكري، أنا لا أستطيع الابتعاد عنكِ، ولكني كذلك لست قادرًا على القرب منكِ. أنا معكِ وإن كنت لست بجواركِ. اعلمي أني دائمًا لكِ."

أماندا: "حسنًا، اذهب. لا أريد رؤيتك ولا أريد سماع صوتك بعد الآن."

غادرت والحزن والغضب يملأني. يبدو أنني حقًا أحب أماندا، ولكن كنت أحاول إخفاء الأمر كي لا أخسرها، فأنا لم أكن متأكدًا من مشاعرها تجاهي وهل تراني بالطريقة التي أراها بها. كما أنني كنت في مرحلة التشافي من تجربة سوسن والارتباط، ومرحلة إعادة بناء واستعادة ذاتي، ولم أكن أرغب في اتخاذ أي خطوة غير محسوبة.

ربما لو كنت في ظروف أخرى أكثر استقرارا من جميع الجوانب لتقدّمت لها دون تردد، أما الآن لا أستطيع سوى أن أكون صديقًا مخلصًا لها. عدت إلى المنزل وأنا ألوم نفسي وأردد:

"متى ستتعلم أن قلبك لا يصلح سوى لضخ الدم، وليس لاتخاذ القرارات؟ ألم تكتفي بعد من الألم؟ ابتعد وابقَ ضمن المسافات الآمنة. لأنك لم تعد قادرًا على تحمل تجربة خذلان أخرى."

مضت الأيام والأسابيع والشهور دون أن يحدث أي تواصل بيننا. كانت الحياة تسير ببطء. اكتفيت بالمرور على المطعم ومراقبتها عن بعد، وبالتأكيد لم أعد أذهب إلى الجامعة كذلك. كانت الذكريات تلاحقني في كل زاوية، تُذكرني بها في كل لحظة.

رغم محاولاتي الحثيثة للاتصال بها في الأسابيع الأولى، لم ترد على أي من مكالماتي أو رسائلي، حتى رسائلي النصية كانت تبقى بلا إجابة. كل مرة أرفع فيها الهاتف، كان قلبي ينبض بالأمل، لكن سرعان ما كان يخبو ذلك الأمل ويحل محله شعور مرير بالفقدان. كنت أشعر أن الفجوة بيننا تتسع يوماً بعد يوم، ومعها كانت تتسع آلامي.

كانت آخر رسالة أرسلتها لها:

"أنا لا أهرب منك، بل أهرع إليك. لكنني أخشى الاعتياد على ذلك، فلا أجدك حين أحتاجك. لست بالجبان، لكنني محارب أنهكته الحروب، قاتل بمفرده، على جبهاتٍ لا تُعد ولا تُحصى، حتى استُنزفت قواه، فاختار العزلة، تاركًا وراءه العالم وما فيه من صخب."

اليوم الثالث في العزاء

شعرت بخطوات أحدهم تقترب من غرفة نومي. كانت الساعة الثامنة صباحاً، وكنت مستلقياً على السرير أشعر ببعض الكسل والإجهاد. كانت الأيام الماضية حافلة على جميع الأصعدة.

عرفت أنها والدتي من طرقة الباب. نهضت على الفور وفتحت الباب وأخبرتها أنني مستيقظ. طلبت مني أن اتصل بأماندا وأخبرها بالمجيء مع محمد وسارة لتناول طعام الإفطار معنا.

وافقت على الفور دون أن أعلق على الأمر، لأنني أعلم أن هذا التصرف دليل على بدء تقبل والدتي لفكرة دخول أماندا إلى حياتنا، وكان هذا الأمر من الأمور الأساسية التي كان حسن يرغب في حدوثها في أقرب وقت ممكن.

جهزت والدتي وجبة الإفطار بمساعدة ورد، وحضرت أماندا حاملة سارة وممسكة بمحمد بيدها. كانت ترتدي وشاحاً يغطي جزءاً كبيراً من شعرها. في الواقع، لم أكن أعرف ما إذا كانت أماندا مسلمة أم لا. حسن لم يخبرني بشيء، ولا أستطيع سؤالها. ربما ترتدي الوشاح بدافع الاحترام لعاداتنا وتقاليدنا.

رحبت بها والدتي، وجلسنا جميعاً نتناول طعام الإفطار. في الواقع، لم أستطع تناول طعام الإفطار بشكل جيد لأنني كنت أقوم بالترجمة بين والدتي وأماندا. كانت والدتي تسأل عن حالها وعن حياتها هنا وإذا ما كانت تحتاج إلى شراء شيء معين.

بعد الانتهاء من تناول طعام الإفطار، طلبت والدتي من ورد أخذ الأطفال واللعب معهم لأنها ترغب في الحديث مع أماندا عن أمر ما. غادرت ورد وهي تنظر إلي وكأنها تخبرني أنه يجب علي إخبارها بكل شيء لاحقاً.

نظرت والدتي إلى أماندا نظرة مليئة بالحنان وقالت لها: "ابنتي أماندا، أريد أن أشكرك على كل شيء. أعترف لكِ أنني لم أكن سعيدة برؤيتك في اليوم الأول، ولكن كل شيء اختلف الآن. لم أُنهِ قراءة جميع الرسائل، ولكنني شعرت بمدى تأثيرك على حياة ابني في كل حرف من حروف كلماته. كانت دموع الحزن تختلط بدموع الفرح وأنا أقرأ ما كتبه. فقد كنت أعيش في قلق كبير عليه خلال السنوات الماضية، ولكنني كنت بلا حيلة. يبدو أن الله قد استجاب لدعائي وجعلك في حياته."

لم أنتهِ من ترجمة كلام والدتي إلا وقد أقبلت أماندا مقبّلةً رأس والدتي وقالت لها: "لقد أحببتك من قبل أن أراكِ، وكان حسن واثقًا من أنكِ ستتقبلينني. لقد أخبرني الكثير عنكِ."

أكملت والدتي حديثها وقالت: "أخبريني يا أماندا عن لحظات حسن الأخيرة."

أخذت أماندا نفسًا عميقًا واعتدلت بجلستها وقالت: "حسنًا، سأخبركِ. استيقظت في الصباح الباكر في يوم العملية. كنت قد رتبت مع إحدى صديقاتي للقدوم مبكرًا للجلوس مع الأطفال. كان حسن مستيقظًا، بل أعتقد أنه لم ينم. كان يصلي ويتوجه بالدعاء إلى الله."

احتضن محمد وسارة وشعرت أنه كان يودعهما للمرة الأخيرة، بالرغم من أنه كان يظهر حالة كبيرة من التفاؤل والهدوء. ولكن شعرت أن عينيه تحملان الكثير من القلق.

اتجهنا إلى المستشفى، وكان يمسك بيدي كلما أتيحت له الفرصة ويخبرني أنه بعد خروجه من العملية وقضاء فترة النقاهة سنعود سويًا إلى السعودية. في الواقع، كنت متقبلة للأمر لأنني لم أهتم كثيرًا بالمكان الذي سأعيش فيه طالما أن حسن سيكون بجواري. بالإضافة أن

والدي أخبرني أن الناس هناك لطفاء جدا والحياة رائعة وآمنة بعكس ما كان يصوره الإعلام لنا.

وصلنا إلى المستشفى، وقبل أن ننزل من السيارة، نظر إليّ وأخبرني:

"أشعر بأن وجودك هو الذي جعلني أدرك معنى الحياة الحقيقي؛ فأنا قبلك كنت أعيش، ومعك صرت أحيا. بل إنك تجعلين دقات قلبي أعلى من أجراس كاتدرائية نوتردام، بعدما كنت أعتقد أنه بالكاد ينبض."

قبلته وأخبرته: "حسنًا، عليك الآن أن تكون مستعدًا لإخباري بمثل هذه الأمور طوال الوقت من الآن فصاعدًا."

ابتسم وأجابني قائلًا: "بالتأكيد سأفعل بكل حب."

دخلنا إلى المستشفى واتجهنا إلى غرفة خاصة لتجهيزه للدخول إلى العمليات. قام بتبديل ملابسه وارتدى الرداء الخاص بالعمليات واستلقى على السرير. دخلت الممرضة وأخبرتنا أنهم سيأتون بعد قليل لأخذه إلى غرفة العمليات. كنت أقف بجواره، أنظر إليه وأمسح على شعره، وهو ينظر إلي دون أن يتحدث.

ثم أمسك بيدي وقبلها، ونظر إلي وقال: "أماندا، أشعر أنني لن أنجو من هذه العملية."

مسحت بيدي الأخرى على وجهه وأخبرته ألا يقول ذلك، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن لدينا الكثير من الأمور والخطط المستقبلية. وضع يده على خدي وبلمسة حنونة مسح على وجهي وقال: "حبيبتي، توقفي. حقًا أشعر أن هذه هي لحظاتي الأخيرة معك."

بدأت بالبكاء وأنا أطلب منه التوقف عن قول ذلك، ولكن كان ينظر إلي وعيناه تملأهما الدموع ويقول: "أرجوكِ لا تبكي يا حبيبتي. أرجوكِ، فأنا أستطيع تحمل كل شيء إلا أن أرى عينيك تدمعان."

حاولت تمالك نفسي وأخبرته: "حسنًا، سأحاول التوقف، ولكن عليك كذلك أن تتوقف."

أمسك بيدي وقال لي: "أنا خائف جدًا يا أماندا. لست خائفًا من الموت، ولكنني خائف من أن أتركك وحدك وأترك محمد وسارة. خائف على والدتي ومدى الحزن الذي ستشعر به عندما تعلم بوفاتي. أرجوكِ يا أماندا، عديني أن تفعلي ما طلبته منك ولا سيما ما يتعلق بالرسائل. أقسم لك أنني حرصت على أن يكون كل شيء معدًا لكم في حالة عودتك. عديني أن يتربى أبناؤنا مع أهلي، أو على الأقل أن يبقوا هناك حتى يبلغوا الثامنة عشر، ومن ثم لكم حرية الاختيار بالبقاء أو العودة."

نبرة صوته وملامحه جعلتني أدرك فعلاً أنه قد يكون لقاؤنا الأخير. أمسكت يده بكلتا يدي وأخبرته أنني سأفعل كل ما طلبه.

نظر إلي وأخبرني: "شكراً لك على كل شيء. الآن أستطيع أن أشعر ببعض الراحة."

لم يترك يدي حتى وصلنا إلى باب العمليات، وكانت آخر كلمة قالها لي "أحبك".

جلست في غرفة الانتظار، وكل دقيقة تمر علي كانت كأنها ساعة من العذاب. كنت أجلس على كرسي بلاستيكي غير مريح، أراقب عقارب الساعة بحذر، وألتقط أنفاسي بصعوبة. كانت عيناي تملأهما الدموع، أترقب أي حركة من الأطباء أو الممرضات، وأحاول أن أبقي قلبي ثابتًا رغم العاصفة العاطفية التي تعصف بي.

كنت أصارع أفكاري السوداء، أتذكر كلمات حسن الأخيرة وأتمسك بالأمل بأنه سيعود إلي سالمًا. كلما مر الوقت دون أخبار، كان القلق يزداد في قلبي، وأحاول طمأنة نفسي بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن حسن سينجو من هذه المحنة.

وفجأة، رأيت أحد الأطباء يتجه نحوي بملامح جادة وحزينة. شعرت بأن قلبي توقف عن النبض لثوانٍ، وارتعشت يدايَ وأنا أنتظر سماع الأخبار. وقف الطبيب أمامي، وبصوت منخفض ومتعاطف قال: "أنا آسف يا سيدتي، لقد فعلنا كل ما بوسعنا، ولكن العملية فشلت والمريض لم يتمكن من النجاة".

شعرت وكأن الأرض انهارت تحت قدمي، وانفجرت بالبكاء بشكل هستيري. كانت دموعي تنهمر دون توقف، وصوتي يرتجف من الصدمة والألم. لم أستطع تصديق ما سمعته، ولم أستوعب فكرة فقداني لحب حياتي.

تذكرت وعدي لحسن بأن أعتني بالأطفال وأحقق رغباته، ولكن في تلك اللحظة لم أكن أرى سوى الظلام والحزن العميق.

كنت أريد أن أصرخ، أن أسأل لماذا؟! أن أطلب من الزمن أن يعود للوراء، ولكنني كنت أعلم في أعماقي أن هذا مستحيل. حاولت أن أجمع شتات نفسي، أن أتنفس بعمق، ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل. كنت أتمنى لو كان حسن معي الآن ليخفف عني هذا الألم، ولكنني أعلم أن علي أن أكون قوية من أجله ومن أجل الأطفال.

في تلك اللحظة، شعرت بأنني فقدت جزءًا من روحي، وأن الحياة لم تعد كما كانت من قبل. لكنني كنت أعلم أن علي الاستمرار، أن أحافظ على وعدي لحسن، وأن أجد القوة في حبي له وفي ذكرياتنا الجميلة لأكمل الطريق بدونه.

بعد ذلك أخذت أماندا ووالدتي بالبكاء، ولم أستطع تمالك نفسي من منظرهما فبكيت معهما. أتى محمد وسألنا عن سبب بكائنا، فقمت باحتضانه وأخبرته أنه لا يوجد شيء، وفي محاولة لإلهائه، قمت بحمله وسألته إن كان يريد أن يصبح طياراً، فأجابني بنعم، فأخذت أقذفه في الهواء ومن ثم ألتقطه.

صرخت علي والدتي وأمرتني بالتوقف عن هذا. نظرت إليها وأخبرتها ممازحاً: "من الطبيعي، فهذا ابن حسن، ابن الابن الغالي والمفضل لك".

أوقف حديثنا صوت والدي وهو يناديني. تركت محمد واتجهت إلى والدي. أخبرني أنه تلقى عدة اتصالات من سوسن ولكنه تجاهلها. علمت أن الأمر يتعلق بما حدث بالأمس مع ورد، لذا أخبرته بالقصة.

أعجب والدي بتصرف ورد وأثنى علي لأنني أخبرته. ثم قال لي: "اليوم سأعيد حق حسن." ثم انصرف.

لم أفهم ماذا كان يعني بذلك، لكنني كنت واثقاً أنه سيفعل شيئاً يثلج صدري.

بعد انتهاء العزاء وذهاب الناس، قدم إلي والدي وطلب مني أن أسبقه إلى المنزل وأقوم بفتح المجلس لأن أعمامي، ومنهم والد سوسن وابنه، سيأتون إلى المنزل.

اتجهت إلى المنزل وطلبت من والدتي مساعدتي في إعداد المجلس دون أن نعرف السبب. قدم والدي وخلفه أعمامي، وجلس في منتصف المجلس وانتظر حتى يجلس الجميع. نظر إليهم وقال:

"خلال الأعوام الماضية، سمعت الكثير منكم وتحملت ما لا تتحمله الجبال من تهم وحديث بالسوء عن حسن - رحمه الله - ابني البكر وسندي. يبدو أن حلمي وصمتي قد جعلكم تسهبون في هذا الأمر، بينما كنت أظن أنكم ستقدرون هذا الصبر وتقابلونه بالإحسان. نحن عائلة، وما يضر سمعة حسن يضر سمعتكم قبل سمعتي. لكن للأسف، تماديتم في النهش فيه والطعن في أخلاقه."

حاول والد سوسن الحديث، لكن والدي أوقفه بحزم وشدة، طالبًا منه السكوت حتى ينهي كلامه. أكمل حديثه قائلاً: "اليوم سيتضح كل شيء

وينصر الله حسن، بل الدكتور حسن الذي أكمل الماجستير والدكتوراه قبل وفاته رحمه الله."

ثم أخذ هاتفه وقال: "تعالي يا سوسن عند الباب."

كان الجميع مستغربًا. شعرنا بقدوم أحدهم تجاه باب المجلس، ثم سمعنا صوتًا يقول:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

رددنا السلام، وكان صوت والدي هو الأعلى بيننا. قال لها: "سوسن، هل أحضرتِ المصحف؟"

فأجابت: "نعم."

فقال لها: "اقسمي على المصحف أن ما تقولينه هو الحق."

ففعلت ذلك وقالت: "أقسم بالله العظيم أن ما أقوله هو الحق. حسن لم يفعل شيئًا مما قلته لكم، وكل ما قلته كان افتراءً وكذبًا وهراءً. ما فعلته كان بدافع الحقد والحسد عليه".

نهض أخو سوسن، لكن والده أجبره على الجلوس والبقاء صامتًا. أكملت سوسن حديثها قائلة: "أنا السبب في كل شيء، وكنت أنا التي تدفعه إلى الطلاق بكل الطرق المباشرة. ولكن بعد الطلاق، شعرت بمشاعر غضب وحقد عليه، مما دفعني للحديث عنه في كل مكان بأبشع الأحاديث. وكل ما كان يمر به كان نتيجة لأفعالي وتصرفاتي الطائشة، والتي أندم عليها أشد الندم."

طلب منها والدي المغادرة، وبعد ذلك نظر إلينا جميعًا وقال: "هل سمعتم ما قالت؟ اذهبوا واستغفروا الله على ما فعلتموه بي وبابني وعلى إفساد حياتنا".

كان الخجل يملأ وجوههم، وأقبل والد سوسن على والدي مقبلًا رأسه ومعتذرًا عما بدر من سوسن وابنه في الأعوام الماضية. اكتفى والدي بتحريك رأسه وقول: "حصل خير، حصل خير".

بعدما أوصلت الجميع إلى الباب، ذهبت إلى والدي وسألته عما حدث قبل قليل وكيف استطاع أن يجعل سوسن تفعل ذلك. طلب مني الجلوس بجواره وقال لي:

"تعلم أن ما قامت به ورد بالأمس ساعدني على فعل ذلك. لقد قمت بإعادة الاتصال بسوسن وأخبرتني ما توقعت. كانت خائفة من أن يعرف

أهلها بما حدث وأن يروا الصور، وكانت تترجاني أن أستر عليها. وطلبت مني أن أحرص على ألا يروا صور المحادثات. فوافقتُ بشرط أن تفعل ما أطلبه منها."

هنا شعرت أن الأمر أصبح منطقيًا، لأنه من المستحيل أن تفعل سوسن هذا من تلقاء نفسها وتبادر بأمر كهذا. ثم قال لي: "الآن أشعر أننا انتصرنا لحسن. هيا لنذهب إلى والدتك وورد ونكمل ما تبقى من الرسائل."

الرسالة الثامنة: زمردة الأقدار

كم كان مؤلمًا ومُرهقًا أن أكتفي بمشاهدتها من بعيد، دون القدرة على الحديث معها أو حتى الاقتراب منها. كل شيء في داخلي كان يصرخ باسمها. أراها كل يوم من خارج المطعم، وأشعر بأن قلبي ينفطر شوقًا لها، ولكنني عاجز عن الوصول إليها. أريد أن أقترب، أن أشرح، أن أعتذر. كانت كالشمس التي تضيء حياتي، دون قدرتي على الاقتراب خشية الاحتراق.

وصلني خبر أن البحث الذي قدمته قد اختير من ضمن القائمة النهائية، والتي تشمل أفضل عشرة أبحاث تم اختيارها من بين 900 بحث وورقة علمية قدمت. هذا الأمر جعل أحد الدكاترة في الجامعة يقبل أن أكون أحد طلابه، وأكمل دراسة الدكتوراه معه. كنت سعيدًا جدًا بالأمر، فذلك يعني أنني سأملك المزيد من الوقت لإصلاح ما أفسدته وربما كذلك كي أستعيد حبيبتي. نعم يا والدتي، كانت هي حبيبتي بكل معنى الكلمة. كما أن قبولي كأحد طلاب الدكتوراه يعني عودتي للجامعة، وإتاحة الفرصة مجددًا لرؤيتها بشكل يومي وشبه مستمر.

إضافة إلى ذلك، قد أربح الجائزة، وحينها سأذهب إليها دون تردد وأعتذر لها، وربما أقوم ببادرة رومانسية كتلك التي في الأفلام وأتقدم لطلبها. قد تستغربين من ذلك، ولكن حقًا كنت أشعر أنه يتحتم عليّ

عيش بقية حياتي معها. فالحياة بدونها مختلفة تمامًا عما كانت معها. لا سيما أن المبلغ المالي سيضمن لي حياة كريمة معها، وسيجعلني أكثر ثقة. إن أكثر ما تعلمته في حياتي هو أن المال حقًا عصب الحياة. وربما في الماضي لم أدرك ذلك، لأنه وبالأمانة والدي لم يقصر علينا أبدًا في هذا الجانب.

بدأ الفصل الدراسي الجديد، وبدأت أصادفها في القسم مرارًا وتكرارًا، دون أن نتبادل الحديث. كانت تكتفي بالنظر إلي بصمت. في بعض الأيام، كنت أجرؤ على كسر هذا الصمت الرهيب، فأتوجه إليها بتحية صباحية أو أقول لها مرحبًا. كانت ترد بكلمات قليلة، غالبًا ما كانت "صباح الخير" أو "مرحبًا"، مصحوبة بابتسامة تبدو مصطنعة، قبل أن تتابع طريقها. كان في عينيها شيء غامض، شيء يجعلني أشعر بأن خلف تلك الابتسامة المصطنعة توجد مشاعر مختلطة لم أستطع فهمها بعد.

بعد عدة شهور، لاحظت أن المطعم كان مغلقًا لأكثر من أسبوع. انتابني القلق وشعرت أن هناك أمرًا ما حدث لوالدها. فقمت بإرسال رسالة نصية لها لأسألها عن حالها وحال والدها، ولكن كعادتها لم ترد.

في منتصف الأسبوع التالي، وصلتني رسالة من اللجنة المنظمة للمسابقة تفيد بأن بحثي حصل على المركز الأول! كنت في غاية

السعادة، ولم أتمالك نفسي، فأخذت هاتفي واتصلت بأماندا لأخبرها، ولكنني وجدت الهاتف مغلقًا. حينها زاد قلقي وانشغالي عليها.

في نهاية الأسبوع التالي، قررت التوقف عند القسم الذي تعمل فيه بأي حجة للاطمئنان عليها. وجدت مكتبها خاليًا، فسألت إحدى زميلاتها عن أماندا. أخبرتني أنها في إجازة بسبب مرض والدها الشديد والذي أدى إلى وفاته قبل عدة أيام.

شعرت بذهول شديد للوهلة الأولى للخبر، رغم أنني كنت أعلم في قرارة نفسي أن تليف الكبد الذي أصاب والدها سيؤدي إلى وفاته لا محالة، لكن لم أكن أتوقع أن يحدث هذا الأمر خلال عدة شهور فقط.

خرجت مباشرة من الجامعة واتجهت إلى بيتها وأخذت أطرق الباب وأناديها. فتحت الباب ببطء، وكأنها تحمل ثقلًا لا يُحتمل. كانت عيناها غارقتين في الدموع، تحملان حزن العالم كله. وجهها الشاحب والمتعب يعكس ليلة بلا نوم، وعلامات الدموع لا تزال واضحة على خديها. كانت شفتيها ترتعشان قليلاً، كأنها تحاول أن تتمالك نفسها لكنها تفشل في ذلك. لباسها كان بسيطًا، يظهر عدم اهتمامها بمظهرها في هذه اللحظات العصيبة. في يدها اليمنى، كانت تمسك بقارورة كحول بإحكام، وكأنها كانت تبحث فيها عن هروب مؤقت من ألمها العميق. عندما رأتني، قالت لي بصوت متهدج: "ماذا تريد؟"

ضممتها وأخبرتها أنني آسف على خسارتها. لم تستطع إلا أن تنهار، وصوت بكائها الحزين كسر الصمت، معبرًا عن ألم فقدان والدها الذي كان لها كل شيء في هذه الحياة.

أخذت القارورة منها وقلت مستغربًا: "ما الذي في يدك؟ ألم تعاهدي نفسك ألا تقربي هذا السم بعد ما حصل لوالدتك؟"

أجابتني وهي تبكي: "ماذا يهمك؟ لا أحد يهتم بي. الجميع رحل. كل من أحبهم رحلوا. والدتي، والدي، وأنت. لم أعد أهتم بشيء."

مسحت دموعها وقلت: "لا تقولي ذلك، بالتأكيد أهتم لأمرك. لا أستطيع تخيل الحياة بدونك، وأعدك أنني لن أتركك أبدًا."

أجهشت بالبكاء وضمتني بقوة وقالت: "أنا حقًا أحتاجك. لا تذهب بعيدًا عني، لا تتركني أبدًا."

أجبتها بحزم: "بالتأكيد لن أبتعد عنك بعد اليوم."

أخذتها إلى غرفتها وطلبت منها الاستلقاء على السرير وأخذ قسط من الراحة، ووعدتها أني سأمكث معها حتى تنام. طلبت مني ألا أغادر، فوافقت على الفور وقلت لها: "لا تقلقي، سأبقى هنا حتى تستيقظي."

جلست بجانبها، أراقبها وهي تغفو ببطء، وأنا أفكر في كل ما مررنا به، وأدرك أنني لن أتركها تواجه هذا الحزن وحدها. كانت تلك اللحظة

بداية جديدة، وعدت فيها نفسي أن أكون دائمًا بجانبها، مهما كانت الظروف.

لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى غطت في نوم عميق. في اليوم التالي، أخبرتني أنها استيقظت لتجدني جالسًا بجوار سريرها، غارقًا في النوم. كان رأسي مستندًا على سريرها، بينما جسدي ممدد على الأرض. ربما ذلك كان يفسر الألم الذي كنت أشعر به في جسدي. أخبرتها ألا تتحرك وأن تعود إلى السرير وأني سأقوم بغسل وجهي وإعداد القهوة وطعام الإفطار لنا. وبالفعل، قمت بذلك، لا سيما أني أصبحت خبيرًا في إعداد البيض المخفوق. عدت إلى الغرفة وأنا أحمل الكوبين من القهوة وطبق البيض. أخبرتها ممازحًا: "الآن أنا مستعد للعودة إلى العمل لديك، ولكن بشرط أن يتم ترقيتي إلى شيف."

نظرت إلي مبتسمة وقالت: "سأفكر في الأمر."

عندها قلت لها: "أريدك أيضًا أن تفكري في أمر آخر. أعلم أن الوقت ليس مناسبًا، ولكن لا أستطيع الابتعاد عنك، لا سيما في هذه الظروف. ولكن تعلمين أنني لا أستطيع المكوث معك دائمًا. والآن، بعد ربحي لجائزة المسابقة، أستطيع بكل ثقة أن أتقدم إليك."

أجابتني: "حقًا ربحتها؟ تهانينا."

أمسكت يدها وقلت لها: "أردت أن أفعل هذا الأمر بطريقة أكثر شاعرية، ولكن لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. كما أنني لا أعتقد أني أستطيع الانحناء كما هو في الأفلام وطلب الزواج منك لأنني ما زلت أشعر ببعض الألم في جسدي بسبب طريقة نومي البارحة. إضافة إلى ذلك، لا أملك خاتمًا، ولكن هل تقبلين الزواج مني؟"

ضحكت وقالت لي: "أنت أحمق، ولكن نعم أقبل."

ثم طلبت مني الذهاب إلى صندوق مجوهراتها وإحضار خاتم من هناك والتقدم مرة أخرى. قفزت مباشرة وأحضرت أحد الخواتم، وأعدت السؤال، فأجابتني بنعم. شعرت وقتها أنني ملكت العالم.

وفي الأيام التالية، ذهبنا لتوثيق زواجنا في أحد المراكز الإسلامية، وأقمنا حفلًا صغيرًا حضره بعض زميلاتها وأصدقاء والدها. في الواقع، أن الأمر كله لم يكلفني أكثر من 10 آلاف دولار. هل تذكرين يا والدتي كم كانت تكاليف الارتباط بسوسن والتي لم تكن تستحق شيئًا؟

كان ذلك قُبيل انتهاء الفصل الدراسي. وبعد انتهائه، قررنا الذهاب في رحلة برية بمقطورة سكنية عبر أرجاء الولايات المتحدة. كانت أجمل الأيام. كنا نتحدث كثيرًا بلا توقف، حتى أننا كنا نشعر أننا نتحدث أثناء نومنا. كنت سعيدًا جدًا وأنا أراها تعود إلى أماندا المشرقة. كنت أشعر

أن حضورها يجعلني غائبًا عن كل من سواها. بل أجزم أن حضورها هو ما يجعلني لا أشعر بمرارة القهوة. تخيلي يا والدتي، من لا يستطيع شرب القهوة إلا مع كمية كبيرة من السكر، أصبح الآن يشربها بدون سكر فقط لأجلها.

حتى أذكر أنها سألتني في أحد الأيام: "ما الذي حصل لك؟ لماذا توقفت عن الحديث كما كنت في السابق؟"

فأجبتها أني شعرت أن الأمور تغيرت الآن. في الماضي، كنت أعتقد أن لدي مخزوناً كافياً من الكلمات للتعبير عما أشعر به. لكن الآن، يبدو أنني أفتقر إلى التعابير والمصطلحات القادرة على إيصال مدى مشاعري تجاهك والسعادة والبهجة التي أضفتها إلى حياتي منذ أن أصبحت جزءاً منها.

بعد عام أكرمنا الله بمحمد والذي أردت أن يتبارك بهذا الاسم وكذلك يكون على اسم والدي. ثم بعدها بعامين رزقنا بسارة أو سارا بحسب اللهجة الامريكية. وكان اسمها يصف حالة السعادة والسرور التي تملأ حياتنا.

"زمردة الأقدار" هو الاسم الذي اخترته لأماندا، ليس فقط بسبب لون عينيها الخضراوين اللتين تلمعان كالزمرد، بل أذكر أني قرأت أن الزمرد

حجر يُعرف بقوته في جلب السلام والتوازن، تمامًا كما فعلت أماندا في حياتي. بعد سنوات من العناء واليأس، كان لقاؤها سببًا في تغيير قدري، حيث جاءت كإشراقة أمل جديدة في عالمي. كما يُقال أن الزمرد يحمل في طياته قدرة على الشفاء وتطهير الروح، وهكذا كانت أماندا بالنسبة لي؛ أعادتني إلى الحياة وملأتني بالحب والسكينة. كان حضورها يبعث الطمأنينة ويمحو آثار الماضي، مثل جوهرة نادرة تضيء أحلك اللحظات.

هذه هي الرسالة الأخيرة من سلسلة الرسائل، وهي الرسالة الثامنة. قررت كتابة هذه الرسائل وأجعلها ثمانية لأنها تعبر عن مراحل متعددة مررت بها منذ وصولي إلى الولايات المتحدة وحتى اليوم. أردت أن أشاركك كل تفاصيل رحلتي، بكل ما فيها من تحديات وأفراح، لأجعلك تعيشين معي كل لحظة حتى وأنت بعيدة عني.

الآن، أتمنى أن لا تقرئي هذه الرسائل وأن أكون أنا من يخبرك بكل ذلك شخصيًا. ولكن كما ذكرت، أردت توثيق كل شيء حصل معي حتى تكون الصورة واضحة لك. ويمكنك لاحقًا إخبار والدي وورد بالأجزاء المهمة التي ترغبين في مشاركتهم بها.

لعل آخر ما أذكره في هذه الرسائل هو أنني حصلت على شهادة الدكتوراه، ولكن لم يتسن لي الحضور بسبب الوضع الصحي. ولكن بإذن الله، سنحتفل سويًا بحصولي عليها عند عودتي.

الرسالة الأخيرة: رسالة غير مخطط لها

والدتي الحبيبة، يا نبع الحنان ونور عيني وحياتي، غداً هو موعد العملية، بل لم يتبق سوى بضع ساعات. أعلم أن الرسالة السابقة كان من المفترض أن تكون الأخيرة، ولكن أصدقك القول، كنت أكتب الرسائل وأنا لدي شعور غريب بأن العملية ستتكلل بالنجاح وأنك لن تحتاجي لقراءتها. ولكن الآن، أشعر بأنني لن أراكِ ثانية.

أكتب لك هذه الرسالة والدموع تملأ عيني، أحاول جاهداً تجميع أفكاري لإحساسي أنني لم أعبر بما فيه الكفاية عن مشاعري تجاهك. لم أستطع النوم، بقيت مستيقظاً أنظر إلى أماندا نظرات المودع، ثم نهضت وصليت ودعوت لها ولأبنائي ولكم. بعد ذلك اتجهت إلى غرفة محمد وسارة وقمت بتقبيلهما، محاولاً كتم صوت نحيبي وبكائي حتى لا يستيقظا. ثم عدت إلى المكتبة وشعرت أن هناك الكثير مما أريد أن أخبركِ به.

أعتذر إذا كان ما أكتبه مكرراً، ولكني حقاً لا أذكر مقدار مشاعر الحب التي حاولت ايصالها الرسائل الماضية، فأنا الآن أشعر أن الرسائل كانت تصف حالي وحياتي أكثر من مشاعري.

أنا آسف، والله يا نور عيني، إن أكثر ما يخيفني هو مقدار الحزن الذي سيسيطر عليكِ عندما تعلمي بالخبر. أنا أعتذر عن كل هذا الأسى والخذلان الذي أصابكم بسببي. ولكن والله يا حبيبتي، إنني حاولت وحاولت وحاولت، وكنت أسعى جاهداً إلى تصويب الأمور، وإن كانت هناك لحظات ضعف، لكنني كنت أجتهد بكل ما أوتيت من قوة.

تذكرت الآية الكريمة التي قال فيها المولى عز وجل: {إنا كل شيء خلقناه بقدر}. يبدو أن دوري في هذه الحياة قد انتهى. والحمد لله، بالرغم من حزني على عدم رؤيتك أو حتى توديعي، إلا أن السنوات الأخيرة كانت جبراً من الله لقلبي وعوضاً عن كل ما فات.

أعلم أن الكلمات لا تكفي للتعبير عن مدى حبي وامتناني لكِ. لقد كنتِ دائماً السند والدعم، وكنتِ البسمة التي تضيء حياتي في أوقات الظلام. أذكر تلك اللحظات التي كنتِ تحتضنيني فيها، وكيف كانت لمساتك تهدئ من روعي وتمنحني الأمان. لم أكن لأصل إلى ما أنا عليه دون حبك ورعايتك وتضحياتك.

أعلم أن الأيام المقبلة ستكون صعبة عليكِ، لكنني أثق بأنكِ قوية وستتجاوزين هذه المحنة بفضل إيمانك وصبرك. أرجوكِ أن تعتني بأماندا وأبنائي، وأن تكوني لهم كما كنتِ لي، نبع الحنان والدعم. لقد قمت باستثمار غالبية قيمة الجائزة في إحدى الشركات التقنية الناشئة

ولحمد لله أصبحت قيمة ما أملكه تتجاوز الخمسة ملايين دولار. قمت بتحويل خمسة ملايين دولار إلى حساب راكان، وسيصله المبلغ في غضون أيام، وتركت الباقي تحت اسم أماندا.

ختاماً، أطلب منكِ أن تسامحيني على كل لحظة ألم سببتها لكِ ولوالدي، وأن تتذكري دائماً أني أحبكِ أكثر مما يمكن للكلمات أن تعبر. أتركك الآن وأنا على يقين بأن الله سيرعاني وسيرعاكِ، وأنه سبحانه سيجمعنا في جناته إن شاء الله.

أحبكِ من أعماق قلبي يا أمي، وكم تمنيت أن أتمكن من حضنكِ مرة أخيرة، لكنني الآن أتركك في أمان الله ورعايته.

ابنك المحب دائماً، حسن...

النهاية...

بعد مرور عدة أشهر على رحيل حسن، بدأت الأمور تتحسن تدريجياً. كانت الأيام الأولى صعبة على الجميع، خاصة على والدينا اللذان فقدا ابنهما الحبيب. لكن الوقت، رغم قسوته، كان طبيباً ماهراً في تضميد الجراح.

أماندا، زوجة حسن، وجدت ملاذاً دافئاً بيننا. حبنا ودعمنا لها ولأبنائها، محمد وسارة، كان بلسماً لجروحها. رغم الحزن العميق الذي غلف الأيام الأولى، بدأت أماندا تتكيف مع حياتها الجديدة في جدة. كانت مدينة جدة جميلة ببحرها ونخيلها وأجوائها الحميمية، وقد منحت أماندا شعوراً بالانتماء.

أماندا وجدت وظيفة كمعلمة لغة إنجليزية في إحدى المدارس العالمية، وبدأت تكتسب احترام الجميع بفضل جديتها وإخلاصها في العمل. لم يكن هذا العمل مجرد مصدر دخل لها، بل كان أيضاً بوابة للاندماج في المجتمع الجديد. بمرور الوقت، كونت صداقات جديدة، واكتسبت حب الطلاب والزملاء على حد سواء.

ما أثار دهشة الجميع وسعادتهم هو قرار أماندا باعتناق الإسلام. كان هذا القرار نابعاً من قلبها وقناعة عميقة. أعلنت إسلامها بحضورنا

جميعاً، ودموع الفرح في عيوننا تعكس مشاعرنا العميقة تجاهها. هذا القرار جعلها تشعر بمزيد من الانتماء والارتباط بعائلتنا وبالبيئة التي أصبحت جزءاً منها.

أما محمد وسارة، فقد كانا يقضيان وقتاً رائعاً مع أقرانهما في المدرسة وفي الحي. أصبحا يتحدثان العربية بطلاقة، مما جعل تكيفهما مع الحياة الجديدة أسهل. كانا يعيشان طفولتهما بشكل طبيعي، يلعبان ويضحكان وينموان في بيئة مليئة بالحب والرعاية.

والدي، الذي كان دائماً جلفاً، بدأ يُظهر جانباً جديداً من شخصيته بعد وفاة حسن. أصبح أكثر تقرباً منا، وأكثر تفاعلاً مع أحفاده. كانت جلساتنا العائلية تمتلئ بالحديث عن حسن، وذكرياته كانت تملأ الأجواء بالحنين. كان والدي يجد في مشاركة قصصه مع أحفاده نوعاً من العزاء والراحة.

أما والدتي، فرغم أن دموع الحزن لم تفارقها، إلا أن وجود أماندا والأحفاد كان يخفف من وطأة الألم. وأعتقد أنها وجدت في رعاية محمد وسارة نوعًا من التعويض، فحرصت على أن تغمرهم بحبها ورعايتها كما كانت تفعل مع حسن. كانت تعد لهم الطعام المفضل، وتحكي لهم قصصًا عن والدهم، وكيف كان طفلاً مميزًا منذ صغره.

كذلك، كنت أشعر بمسؤولية كبيرة تجاه أماندا وأبناء أخي. فلقد كنت أحرص على أن يكونوا بخير، وأوفر لهم كل ما يحتاجونه. كنت أزورهم بانتظام، وأصطحب محمد وسارة في رحلات صغيرة ليتعرفوا على معالم جدة ويستمتعوا بوقتهم. كنت أشعر بأن دوري الآن هو تعويض غياب حسن، وأن أكون الداعم والمرشد لهم.

الأيام تمضي، والحياة تستمر. بفضل قوة الإيمان والتكاتف الأسري، استطعنا جميعاً أن نتجاوز هذه المحنة. أصبحت أماندا جزءاً لا يتجزأ من عائلتنا، وكأن القدر قد جلبها لنا لتكون رابطاً جديداً بيننا وبين حسن الذي رحل بجسده، لكنه بقي بروحه وذكرياته معنا.

كان هناك شعور دائم بأن حسن معنا. كنا نشعر بوجوده في كل زاوية من البيت، في ضحكات أطفاله، وفي عيون والدتي التي لم تتوقف عن الحنين له. كل شيء كان يسير نحو الأفضل، وكأن روح حسن ترافقنا.

وفي يوم من الأيام، قررت أماندا أن تقوم بخطوة جديدة تعبر فيها عن حبها وامتنانها لعائلة حسن. قامت بكتابة كتاب صغير يتحدث عن حياتها مع حسن، وعن تجربة الحب التي عاشاها، وكيف كان لوجوده أثرًا كبيرًا في حياتها. قررت أن تكون جميع عائدات الكتاب لدعم جمعية خيرية تعنى بالأطفال الأيتام، لتكون هذه الخطوة تذكاراً دائماً لحسن.

الكتاب لاقى استحساناً كبيراً، ليس فقط في جدة، بل في أنحاء مختلفة من العالم. قصتها وقصة حسن كانت مثالاً رائعاً على الحب الحقيقي، وعلى كيف يمكن للحب أن يتجاوز كل الحدود والتحديات. كانت أماندا تشعر بالفخر وهي ترى أن قصة حبها لحسن تلهم الكثيرين وتجلب الأمل للكثير من الناس.

في النهاية، أدركنا جميعاً أن الحياة رغم قسوتها أحياناً، إلا أنها تحمل في طياتها الكثير من النعم والفرص للتجديد والنمو. فقدان حسن كان تجربة مريرة، لكن وجود أماندا وأطفالها، وقوة الأسرة وتكاتفها، جعلنا نتجاوز هذه المحنة. كنا نعيش كل يوم ونحن نحمل في قلوبنا حب حسن وذكراه، ونعمل جاهدين لنكون كما كان يتمنى، أسرة متحابة وقوية.

هذا هو جمال الحياة، أنها تعطينا القدرة على النهوض من جديد، والاستمرار في المسير، محملين بذكريات من نحب، ومستعدين لبناء مستقبل أفضل بفضل الحب والتضامن.

يسعدني تلقي آرائك حول محتوى الكتاب من خلال زيارة صفحته على موقع Goodreads :

https://www.goodreads.com/book/show/220817874